

ك. نيشيف - وفولنشنكو

اخلاقنا والسعادة

ترجمة
يوسف ابراهيم الجهماني



أخلاقيات السعادة

- أخلاقيات السعادة
- كيريل نيشيف - وفولتشنكو.
- ترجمة: يوسف ابراهيم الجهمالي.
- الطبعة الأولى: 1998.
- جميع الحقوق محفوظة.
- دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع.
- سورية - دمشق - هاتف: 7613079.
- ص.ب: 32105.

كيريل نيشيف- وفولتشنكو

أخلاقيات السعادة

نقد العمل ودرسه: بليومكين - دكتور العلوم الفلسفية

فولتشنكو - مرشح العلوم الفلسفية

ترجمة : يوسف ابراهيم الجهماني

مقدمة الترجمة الروسية

تعتبر أعمال كيريل نيشيف "نائب مدير جامعة صوفيا، الاستاذ المساعد ومرشح العلوم الفلسفية" معروفة جيداً، إن كان في بلغاريا، أم في البلدان الأخرى، استقبل علماء الاجتماع أطروحاته العلمية (وجهات نظر رئيسة حول مسألة "الهدف الأخلاقي") بتقدير عالٍ. كما تجدر الإشارة هنا إلى شهرة أبحاثه المتعلقة بمسائل القيمة ونقده لعلم الأخلاق وعلم الأخلاق الاجتماعي البرجوازيين. في عام 1977، نشر كيريل نيشيف بحثاً، قد يكون الأول في تاريخ أبحاث علم الأخلاق عن مذهب السعادة⁽¹⁾، أي ذلك المذهب المهيمن على الأبحاث المتعلقة

(1) - الإيديمونية - (مذهب السعادة Eudaimonism) - المرجع: معجم علم الأخلاق - باللغة العربية ص 108، ومعجم علم الأخلاق باللغة الروسية، 1983 ص 409 - المترجم.

بالأخلاق تاريخياً، التي تنطحت لدراسة مسألة السعادة⁽²⁾. يعرض هذا البحث، بشكل مقنع، قوة طريقة الاستقراء المادية في علم الأخلاق.

يعتبر السؤال حول سعادة الإنسان، سؤالاً ملموساً وليس تجريدياً.

وينحصر فحوى هذا السؤال في المضمون، الذي يعبر عنه التطوير الدوري الموجه لمستوى حياة الشعب المادية و الثقافية بشكل عام والإنسان الفرد بشكل خاص، ومن الواضح أنه في هذه الحالة يعلو دور البحث العلمي والتنبؤ لديناميكية الخير، القدرة بالنتيجة على تلبية حاجات الناس. وانطلاقاً من هذا تتوقع اهتماماً كبيراً، من قبل القارئ بهذا الكراس، لأنه سيكون ممتعاً ومفيداً له، وهو عبارة عن ترجمة مختصرة لاطروحة هذا العالم البلغاري حول مذهب السعادة.

تنحضر مهمة هذا الكراس في تعريف القراء بهذا المحور الفكري الشيق وموقعه من موقف الجدل الفلسفي القائم حول هذه المسألة الأخلاقية الهامة، الذي كان يدور في مختلف مراحل تطور المجتمع البشري وفي أدبيات البحث العلمي الأخلاقي.

(2) نيشيف كريل، أسس مسألة الهدف الأخلاقي، صوي 1977 ص 167.

ولفهم فحوى تصور المؤلف الموضوع من أجل شرح مثل هذه الظاهرة "مذهب السعادة" وذلك الطريق، الذي توصل إليه كبريل نيشيف من المفيد، حسب وجهة نظري، تلمس المفتاح، الذي اعتمده خلال أطروحته العلمية نفسها لبحث الهدف الأخلاقي، "لا تعتبر وجهة النظر الماركسية - اللينينية، نظرية البشرية الوحيدة، لكن يمكن القول أن فيها يتركز تفاؤل عصرنا الحالي، ذلك التفاؤل الذي يمدنا بالآيمان والقوة الضروريتين لتحقيق الغاية المثلى للإنسانية وتنفيذ البرامج المرحلية. وفي ظروف العدالة فقط، يمكن الكشف الكامل عن الأهمية الحقيقية لحياة ملايين البشر، والقيام بحرية وعزم لتطوير وتنمية صفاتهم الموهوبة ومقدراتهم، التي تخدم التقدم وتلبية الحاجات المادية والروحية المتنامية عندهم"⁽³⁾.

في النهاية، أقدم هذه الملاحظة: من أجل تسهيل تلقي نتائج أبحاث أطروحة كبريل نيشيف العلمية لعامة القراء. قمت باختيار الأجزاء المهمة من الكتاب (بعد إذن الكاتب)، إحياء الخلاصة وكذلك تفسير بعض المصطلحات الفلسفية والعلم أخلاقية في النص. لكن بغض النظر عن هذا جميعه، يبقى هذا العمل مخصصاً

⁽³⁾ نيشيف كبريل - المسائل الهامة في الهدف الأخلاقي، صوفيا 1975 ص ص 219-

للمقارئ المطلع إلى درجة ما، المتميز بالاستعداد لتعميق معارفه في المسائل المطروحة. لهذا من الضروري العودة إلى الموسوعة الفلسفية أو كحد أدنى إلى معجم علم الأخلاق.

(ف.ت. غاليجين ، مرفح العلوم الفلسفية)

استهلال

تنتمي مسألة السعادة جذرياً لمسألة الوجود البشري، وتعتبر واحدة من أهم الأهداف الدائمة والديناميكية للوعي الأخلاقي. يبدأ الإنسان بالتفكير عن السعادة، عندما يحدد هدفه الحياتي ويختار العمل وشريكة حياته، (عندها، كما يقال، يؤسس مشروع مصيره الخاص ويحدد رسالته ومساعيه بهذا الشكل أو ذاك)، وعندما تتحول إلى أفعال وأعمال وحقائق، وعندما يصل الإثبات غير القابل للجدل على حقيقة السمر البشري وميزاته، التي لا يمكن إشاحة النظر عنها والتي لا تسبب مطلقاً الخجل للإنسان أو إلى تلك الأحلام والكساعي، عندما تظهر إلى هذه الدرجة أو تلك، بأنها غير ناضجة أو أنه لا تتوفر القوى ذات الطبيعة المثابرة لتحقيقها.

تحتل مسألة السعادة دائماً في علم الأخلاق مكاناً كبيراً، قدم المفكرون كثيراً من أفكارهم وطاقاتهم لبحث مسألة السعادة قديماً وحديثاً. ويصبح هذا الأمر جلياً عندما نعلم أن علم الأخلاق -

ما هو إلا (فلسفة حياتية علمية)، لا تستطيع أن تحيط نفسها بأسوار برجية عاجية للوقاية من الإنذارات والمعاناة التي يعيشها الناس.

تشكل سعادة الإنسان الفرد، سعادة الجيل، سعادة الشعب وسعادة البشرية - مجالات واسعة تدخل في تركيب هذه المسألة. عادة وليس دائماً يستطيع الوعي الأخلاقي تجنب زج قواه في هذا المضمار، ويعتبر التنظير، في هذا المجال، ضرورة حياتية لوعي الفرد.

يطرح هذا العمل عدداً من الأسئلة، متعلقة، قبل كل شيء، بدراسة مسألة السعادة في تاريخ ما قبل ظهور علم الأخلاق الماركسي وفي عصري علم الأخلاق البرجوازي والماركسي - اللينيني أيضاً.

يعتبر مذهب السعادة، من أهم تيارات الأفكار العلمية الأخلاقية العالمية وهو نظرية من نظريات علم أخلاق السعادة. نشأ وتطور الاهتمام بمسألة السعادة في مرحلة تطور علم الأخلاق. وعندما أصبح هذا العلم موجهاً للاتحاد مع الوعي الأخلاقي العملي بدون إعاقات تحول إلى أفكار وموديلات نظرية في فلسفة الأخلاق، وأدخلت هذه الموديلات في التوجه الجماهيري لوعي الناس الأخلاقي.

يتمى علم الأخلاق الماركسي بدوريه العملي والاجتماعي إلى إرث عدد من القرون، ويعتبر هذا العلم أن سعادة الإنسان ليست مجالاً للتسلية الجدلية، بل هي حقل مصيره وحياته، الذي يجب بحته وكسب معركته في الواقع. لكن فقط في الظروف المعاصرة، يجب أن يشار إلى هذا الأمر بوضوح تام - لن تبقى أفكار السعادة حلمًا تجريدياً، أو رغبة شخصية ضمنية، تعارض مسيرة الحياة أو تقع ضمن مجال الصدف. إن أفكار السعادة - هي أفكار جماعية ذات مضمون اجتماعي ثوري لإعادة بناء الحياة.

الفصل الأول

جوهر مذهب السعادة

يعتبر تاريخ علم الأخلاق ممتعاً، لا لأنه يعكس الصراع الفكري حول مختلف مسائل الساعة الأخلاقية، بل بكيفية إدارته لهذا الصراع وذاك الجدل.

أظهرت أنظمة علم الأخلاق وتظهر نفسها بوسائل نوعية شائعة في الصراع حول الأفكار الأخلاقية. وتصنف هذه الأنظمة ككل واحد بأجوبتها على مسائل البشرية السرمدية. وتعتبر أنظمة علم الأخلاق الما قبل ماركسي كأجسام خاصة متماثلة نظرياً، تعبر عن الخاص و عن الاعتراف الطبقي ككل بشكله وحسب طبيعة روح العصر الذي وجدت فيه، وهي — ثروة حاضرة ومنها يجب أن ننطلق لنصل إلى فتوحات هامة في سحابة الطبقة، التي أوجدت هذه الأنظمة.

يتميز نظام علم الأخلاق، قبل كل شيء بمؤشر يقول أن الأفكار والمفاهيم تشكل وحدة ذات شكل معين وتستنبط أحدها

من أخرى، لكنها جميعاً تنتمي في نهاية المطاف إلى مبدأ أولي واحد. يعتبر نظام علم الأخلاق الخاص مشهوراً وذا سلسلة داخلية مترابطة بطريقة معينة، كل سلسلة منها تتصل بالأخرى. ينبئ هذا التركيب الداخلي بوحدة النظام ويعطيه صفة الكلية، المنطقية والتحقيقية والإقناع.

يملك هذا النظام سيادة، لا يمكن اختراقها بدون عواقب تصيب وحدته وبالتالي وحدة تركيبته الفكرية النظرية، كما أن التغيير العشوائي لأفكاره أو تحريفه بأفكار من نظام آخر، يؤدي إلى فقدان الإقناع بمنطقه الداخلي وغالباً ما يؤدي إلى موت النظام ذاته. فعلى سبيل المثال، لا يمكن للطريقة المادية في تلمس الحقيقية أن تتطابق مع الصوفية العميقة أو مع تلك الأفكار المؤسسة على وجود الله (لا يدور الحديث هنا عن التمازج).

يمكن لهذا النظام أن يتطور ضمن حدود معينة فقط، ويمكن لفكرته الرئيسة أن تنحاز بهذه الدرجة أو تلك، وأن تتطور لكن بحدود (فقط عندما يصبح نظامها العلم - أخلاقي ناضجاً). تنحصر الفكرة الرئيسة لهذا النظام الأخلاقي في أهمية مضمونه التركيبي، وتدافع عن نفسها بوسائلها المتوفرة. إلا أن أفكارها تعتمد قبل كل شيء على المبدأ ذاته. أما المبدأ المحتوى مستقبلاً في النظام فيلعب دوراً ضبطياً، على شكل درجة ارتقاء معينة للأفكار

وسلسلة من البراهين. هنا تجدر الإشارة إلى ميزة أخرى لتأثير هذه المبادئ في الأنظمة العلمية الأخلاقية: هي عبارة عن خاصية مميزة لعلم الأخلاق، تشير إلى عدم امتلاك مبادئه على مضمون نظري فقط، بل تقود فعله أيضاً. علم الأخلاق - هو ذلك العلم، الذي يصعب تصوّره دون برنامج عملي، نابع من المبدأ النظري، على الرغم من أن هذا البرنامج يجد تعبيراً له في معدلات مختلفة، متوفرة ومرتبطة بسنن الحياة بشكل وثيق. ويشير جوهر المبادئ العلمية الأخلاقية، قبل كل شيء إلى أنها - متصلة بشكل مباشر بالأبحاث التاريخية الأخلاقية البحتة ونجاحاتها.

إن مبادئ علم الأخلاق هي مبادئ مختلفة ومتشعبة الاهتمامات، تشي إلى درجة نضوج هذا العلم ونوايا التطبيقات المعنية.

المبدأ - هو عبارة عن صفة عامة للفكرة وهو ذو مضمون تجريدي كلي. وفي الوقت نفسه يكون المبدأ مرتبطاً بشكل كامل بأواصر صلة مع جميع المفاهيم المكونة لنظام عمل الأخلاق. لا يستطيع المبدأ وحده أن يخلق نظاماً والنظام لا يستطيع أن يوجد بدون مبادئ. ويمكن القول إذا دققنا أكثر، إن المبدأ العلمي الأخلاقي يمتلك إمكانية الأدلة لنظامه العلمي الأخلاقي.

يملك كل نظام من أنظمة علم الأخلاق طريقته العملية الخاصة به، لبحث هذه الظاهرة أو تلك المتعلقة بالأخلاق. اقتبست أنظمة علم الأخلاق الما قبل الماركسية طرق تفسيرها

للأخلاق من الفلسفة قبل أي شيء آخر. لأنه وكما كان سابقاً، يعتبر المدخل الفلسفي للأخلاق أهم من مبدأ نظام علم الأخلاق نفسه، لأن أهم مبادئ نظام علم الأخلاق انحصرت في الصراع بين المادية والثالية. وبدأ هذا الصراع في الوقت الذي كان يجري فيه تفسير لقواعد الظواهر الأخلاقية - وقبل كل شيء عندما كان يجري التطرق لمسألة الطريق المؤدية إلى بداية الأخلاق الفاضلة السامية، وأيضاً حينما يطرح سؤال عن مدى العلاقة بين الخير والحقيقة. لكن يجب الإشارة هنا إلى أنه إلى جانب استخدام المبادئ الفلسفية العامة لفهم الأخلاق، استخدمت مبادئ علم الأخلاق الخاصة، التي ميزت هذا النظام أو ذاك من أنظمتها، وكان بينهما نقاط تقاطع مشتركة. يعطي المبدأ العلمي الأخلاقي فهماً عاماً لطبيعة ومميزات الروح، معتمداً، في الوقت نفسه، على الفكرة العامة الرئيسة لنظامه الأخلاقي، بهذه الكيفية يقترّب من المدخل الفلسفي للأخلاق. يختار المبدأ المدخل الفلسفي المناسب أكان مادياً أم مثالياً. يعتمد الربط الحقيقي بين الفلسفة وعلم الأخلاق على قاعدة تماثل العلاقة مع الأخلاق بالمفهوم الفلسفي العام أو النظري الخاص، وينحصر الفرق بينهما، قبل كل شيء في اختلاف مجال مادة البحث:

تفسر الفلسفة مكانة الأخلاق في خارطة العالم، أما علم الأخلاق - فيأخذ الأخلاق كما هي عليه في الواقع. إن البرهان على صحة هذا المبدأ أو ذاك في علم الأخلاق، المستخدم في بناء أي نظام - هو عمل صعب ومعقد. تتواجد مثل تلك الأنظمة، التي تؤسس هذا البرهان على قواعد منطقية، أي بمقدار تأثير هذا المبدأ على أطر هذا النظام أو ذاك. بهذا الشكل تأسست ميتافيزيقية الأخلاق، عندما كانت مع اكتفاءها الذاتي المنطقي منغلقة على نفسها. تضمن أهمية الأمر⁽⁴⁾ القطعي بواسطة مجموعة متسلسلة من الاستدلالات العقلية عنه. تنحصر معادلة هذا المبدأ بجوهر إظهار الإرادة الحرة النفعية والاستقلالية لماهية الإنسان. وفي مجالات أخرى يجري البرهان على صحة المبدأ العلمي الأخلاقي، عندما يلجؤون إلى شواهد تجريبية وحقائق جلية. كتب جون ستيوارت ميل قائلاً⁽⁵⁾ :

(4) مبدأ الأمر القطعي في علم الأخلاق - هو محاولة لإيجاد قاعدة عامة لسلوك يؤمن برؤية أخلاق الإنسان - كانط -.

(5) جون ستيوارت ميل - فيلسوف إنكليزي، اقتصادي وشخصية اجتماعية (1806-1873). كان بصيراً للإصلاحات الليبرالية والديمقراطية. كان يشارك كانط في العديد من جهات نظره الفلسفية والمنطقية - الموسوعية السوفيتية الكبرى - المترجم.

”إن السعادة العامة مرغوبة، ولإثبات ذلك غمطك برهاناً وحيداً يقول: إن كل إنسان يريد الحصول على السعادة... رغبة الإنسان في السعادة- حقيقة، وبمجرد وجود مثل هذه الحقيقة يعتبر برهاناً كاملاً وتاماً على ما هو الممكن، وما هو الممكن تأمله فحسب“⁽⁶⁾.

هكذا أو بشكل آخر، يقوم المبدأ دائماً بتشكيل جو ذهني خاص للنظام العلمي الأخلاقي. ومن وجهة النظر هذه، يعتبر تصنيف أنظمة علم الأخلاق ممتعاً جداً.

تميز أدبيات علم الأخلاق التاريخية بين أنواع المذاهب بدلالات مختلفة. وبدون أدنى شك، يمكن اعتبار إحدى الدلالات الهامة للمذهب هي المبدأ: لأن المبادئ الرئيسة للأنظمة المختلفة تنفي أحدها الآخر وتعطي بالنتيجة وجهة نظر خاصة للأخلاق، التي يجعلها كل منها: وغالباً ما يشيرون وهم محقون في ذلك- إلى امتلاك المذاهب العلمية الأخلاقية لمبادئ. فعلى سبيل المثال، يشير بايندزيلادزه في كتابه ”علم الأخلاق“ إلى أنه ”يمكن تقسيم جميع أنظمة علم الأخلاق المادية والمثالية إلى اتجاهين رئيسيين- علم أخلاق السعادة وعلم أخلاق الواجب...“⁽⁷⁾. وعلى الرغم من

⁽⁶⁾ ميل جون سيتوارت- الأوتوليتاريا- 1900 ص 145.

⁽⁷⁾ بايندزيلادزه. ق. علم الأخلاق، تيليسي، 1970 ص 159.

صعوبة الموافقة على تأكيدات المؤلف، التي يعتبر فيها أن الهدف الرئيسي للماركسية هو سعادة الإنسانية وبالتالي هي المفهوم الرئيسي لعلم أخلاقه⁽⁸⁾، إلا أننا نرى أن هذا التحديد صحيح ويمكن لأساسه أن يخدم كجواب صادر عن نظرية علم الأخلاق على السؤال عن المثل الأعلى ومعنى الحياة.

ويؤكد مؤلفو كتاب "دراسات في تاريخ علم الأخلاق"⁽⁹⁾ بنفس المستوى على دور المبادئ العلمية الأخلاقية. عرض كتاب "علم الأخلاق الماركسي"⁽¹⁰⁾ مبدأً آخرًا لهذا التقسيم، الذي نجد فيه إلى جانب ذكر النوعين السابقين الذكر (التجريبي والواقعي والسوبر واقعي) من أنظمة علم الأخلاق أيضاً، تصنيفاً للمدارس التجريبية في علم الأخلاق (الطبيعية، الكونية والعلمية الاجتماعية). تظهر جميع هذه الأنواع من المذاهب نتيجة لنوعية الإجابات على سؤالين اثنين هما: "ما هو مصدر الأخلاق؟ وما هي علاقة الإنسان بالمثل الأخلاقي الأعلى؟"⁽¹¹⁾. يعتبر التصنيف الأخير أكثر تفصيلاً وأشمل من التصنيف الأول. إلا أن تضمنه

(8) المصدر السابق، ص 179.

(9) دراسات في تاريخ علم الأخلاق، موسكو 1969، ص ص 8، 9.

(10) نشر بتحرير أ.ي. تيتارنكو - المترجم.

(11) علم الأخلاق الماركسي، موسكو 1976 ص 14.

للمذهب المتعة (المبدأ الرئيس لبحث الإنسان عن المتعة)، ومذهب المتعة (المذهب الرئيس لبحث الإنسان عن الفائدة)، ومذهب السعادة وصولاً حتى المذهب الطبيعي (المؤسس على المبادئ العقائدية، المتادية بفصل الأخلاق ليس عن الظروف الاجتماعية وإنما عن الطبيعة البدائية، كخصائص الإنسان النفسية والبيولوجية)، يؤدي إلى عاقبتين غير مرغوب بهما: الأولى، تحجيم القيمة الهامة لخريطة الإنسان في هذه المذاهب (كوجود طبيعي يسعى إلى اللذة والمتعة)، الثانية: إفقار المضمون الحقيقي لهذه الاتجاهات (كاتباه مذهب السعادة، الذي لا ينفي كلياً البواعث الوجودية وغيرها). هذا إذا لم نتحدث عن أمر مفاده أن التناقض بين التجريبية والمثالية في علم الأخلاق لا يتطابق أبداً مع نظيره في الفلسفة الموجود بين المادية والمثالية.

يجب أن نتبع ذلك بالإشارة إلى أنه عادة نقرأ تصوراً غير دقيق عن حدود مذهب السعادة في علم الأخلاق. نجد مثل هذا الأمر في "الموسوعة الفلسفية" إذ يؤكدون على أن مذهب السعادة - هو مبدأ قديم العهد لفهم الحياة، أما في علم الأخلاق فيعتبر أقدمها جميعاً - وهو مبدأ أيديولوجي لشرح طبيعة الأخلاق وتأسيس احتياجاتها. وتجدد الإشارة إلى أن مذهب السعادة القديم العهد هو مذهب سقراطي يتضمن أفكاره حول الحرية

الداخلية، الناتجة بفعل الوعي الذاتي للشخصية واستقلاليتها عن العالم الخارجي. وعلى الرغم من أن مذهب السعادة كان، منذ ظهوره، على علاقة وثيقة بمذهب الواجب، إلا أنهما كانا بالمعنى الشائع يناقض أحدهما الآخر.

السعادة ليست لذة دائمة متزايدة (أرسطو)، بل هي نتيجة مساعٍ للتغلب على الاغراءات الدافعة للبحث عن المتع الحسية عن طريق إقناع الذات وإجبارها والتمرن على الزهد والتقشف، قطع الارتباطات مع العالم الخارجي وخيراته والتخلص من الحرية الناتجة عن ضرورة خارجية أو تقلبات المصير. هذه هي المعقولة وهذا هو التحانس الأصلي للفضائل⁽¹²⁾ ويصبح هنا هذا المذهب عبارة عن مذهب سعادة وجودي. وهذا يتطابق مع الأبيقورية، قبل أي شيء آخر، ويقدم لنا تقييماً لتحليل مسألة "الفضيلة والسعادة". ونجد في هذه السمة مكاناً نموذجياً لمسألة مذهب السعادة: الترابط بين المعاناة واللذة، بين المنطقي والمحسوس، بين الأثر والنتيجة. أما العلاقة بين مبدأي الواجب والسعادة فهي أكثر تعقيداً. يجبرنا هذا جميعه أن نعود إلى بحث جوهر نظرية مذهب السعادة ومبادئها الرئيس - مبدأ السعادة.

(12) الموسوعة الفلسفية، المجلد الخامس، موسكو 1970 ص 530.

تعاملت أنظمة علم الأخلاق الماقبل ماركية مع أخلاق الخير السامية كهدف حياة الإنسانية اعتماداً على مبدأين اثنين هما: مبدأ اللذة (السعادة) ومبدأ الفضيلة (الواجب). وصف أبيقور المبدأ الأول قائلاً: "ونحن نقول أن اللذة هي عبارة عن مبدأ وهدف للحياة السعيدة. نحن نعرف، أنها أول خير طبيعي (نعمة)، وعندما نختار أو نرفض أي من الأشياء، يظهر عندنا شعور من السرور (الرضاء) ونبحث عن لقاء معه مستخدمين أحاسيسنا"⁽¹³⁾، هذا هو مبدأ السعادة. أما المبدأ الآخر فهو مبدأ الواجب. يقر هذا المبدأ بانحصار هدف الحياة في الفضيلة، التي تتضمن متطلباتها الذاتية ومتطلبات أخرى عقلية أيضاً. يؤكد مذهب السعادة على أن للإنسان مسعى واحداً - هو السعادة، التي خلقتها الطبيعة له وأصبحت ضرورة مستمرة ومتطلباً عقلياً.

ليس نادراً ما جرّ الصراع بين مبدأي مذهب السعادة ومذهب الواجب إلى محاولات ضم مجالات أخرى غريبة عنهما وخلق مستعمرات منهما أيضاً.

يؤكد دعاة مبدأ السعادة على أن الفضيلة تنتج عن السعادة، لكن دعاة مبدأ الواجب يعتبرون السعادة غير مقبولة بتاتاً بدون الفضيلة، ويعتبرونها من نتائجها. لم تتصارع المبادئ نفسها، بل

⁽¹³⁾ الفلاسفة الاعلاء (مقتطفات، نصوص، شهادات)، كيف، 1955، ص 258.

وصل الأمر إلى حد تصارع أنظمة علم الأخلاق، الأمر الذي أدى إلى حصول ترابط وثيق بين علم الأخلاق والمعضلة العامة للفلسفة.

ارتبط مذهب السعادة ارتباطاً وثيقاً بالمادية. وكان جميع العاملين في مجال علم الأخلاق تقريباً من دعاة مذهب السعادة-ابتداءً من أبيقور⁽¹⁴⁾ وانتهاءً بفيورباخ⁽¹⁵⁾ وكان ضمن دعاة مبدأ السعادة مثاليون كـ (جورج ستوارت ميل)، الأمر الذي يشير إلى الاستقلالية النسبية لأنظمة علم الأخلاق ، ولا يناقض المبدأ العام. يتصف المدخل المادي لفهم الأخلاق في الفلسفة الما قبل ماركسية، قبل أي شيء آخر، بشرح الظواهر الأخلاقية. أما الذي أوصل علم الأخلاق إلى مذهب السعادة فهو اعتراف الماديين، من أبيقور إلى فيورباخ، بأن بداية الأخلاق تنطلق من الطبيعة البشرية والحاجات الفيزيائية للجسم، فالإنسان إلى جانب الإحساس، كما أشار أبيقور، لا يستطيع تلقي أي شيء، ويعود

⁽¹⁴⁾ Epikuros (342-271 قبل الميلاد) فيلسوف إغريقي مادي قديم، عاش في أثينا وهناك أسس ما يسمى بـ مدرسة الأبيقورية- الموسوعة السوفيتية الكبرى- المجلد 30 ص 217.

⁽¹⁵⁾ Feuerbach (1804-1872) فيلسوف ألماني مادي وملحد- المجلد 27 ص 266 المترجم.

هذا الأمر إلى الأذواق الذهنية الرفيعة- إن اللذة هي خطوة بشرية رفيعة وتشكل أهمية إنسانية.

لم يكن دعاة مبدأ السعادة دعاةً للأحاسيس المبتدلة، كما نعتهم أعداؤهم، الذين ينتمون إلى معسكر المثالية ومذهب الواجب. اعتمد أصحاب مبدأ السعادة، بشكل مباشر، على وقائع حقيقية حية، هي تجربة البشر الأخلاقية، لهذا أعلنوا مراراً، حتى في نظرية المعرفة، أنهم يقفون مع أصحاب المذهب الحسي (المعتمد على الخبرة الحسية). فعلى سبيل المثال، أكد فيورباخ على عدم استطاعة الأخلاق الانفصال عن الأنا النقية، ولا عن العقل النقي، ولا نستطيع أن نفهمها دون الرجوع إلى محيط الأحاسيس أو إلى العلاقة بين الأنا والأنث. بهذا الشكل، اعتمد مذهب السعادة على العوامل المحيطة بالإنسان ونقد الأمزجة الإلحادية، مطلقاً روحه للاتفتاح على خيرة الإنسان الحسية، راکعاً لشهوات البشر. وعلى الطرف الآخر المضاد، اعتمد المثاليون ودعاة مبدأ الواجب على الحساسية المنوطة بالإنسان، وعلى الروح واستعانوا بالأفكار الخالدة عنها، واعتبروا الجسم والإحساس مصادر شر بالنتيجة. إلى جانب ذلك، يجب الإشارة إلى اعتماد مذهب السعادة الما قبل ماركسي على أهمية الفاعلية الفردية، وفسرت السعادة بأنها وضع فردي مستقل، وهي- عبارة عن مجموع

جيري أو سلسلة من اللذات (المتع)، التي تشكل بمضمونها بمحمل النشاط الحياتي للفرد. تستطيع الفردية في المجال النظري أن تصل أو أنها وصلت إلى درجة الدفاع الأناني (الحماية والذرائعية). ويجب أن نأخذ بالحسبان هنا، تأثير الأوضاع الصدفية، لموقع المذهب الحسي في نظرية معرفة الفرد، التي تعتمد على طريقة الاستقراء (تعميم الخبرة) في المنطق، وتقبل الحالة الفردية على أنها المقياس الصحيح للحقيقة في الوجود. وهذا جميعه سوف يدخل ويؤخذ بعين الاعتبار خلال عملية تفهم الأخلاق، ويدخل في تركيب خريطة مذهب سعادة الإنسان وعالمه الأخلاقي. وهنا يجدر التأكيد، من دون أدنى شك، على أن أصحاب مذهب السعادة لم يعطوا للعقل دورة المستحق في الحياة البشرية وجعلوه تابعاً لوزن اللذات فقط. وانحصر تصور نظرية مذهب السعادة بأن كامل الحياة الداخلية للإنسان هي عبارة عن أخلاق كلعبة الأحاسيس والملموسات.

امتلك مذهب السعادة كنظام علمي أخلاقي كلي، خلال تاريخ تواجده الطويل، ظلالاً مختلفة من التفسيرات وصير على إعادة تشكيل مناهجه وبراهينه. أثرت الظروف الاجتماعية، التي ظهر وترعرع خلالها هذا النظام تأثيراً ملموساً وحاسماً على الطبيعة والدور الحقيقي له. ويجب أن يكون واضحاً أن صاحب

الرفيق - الأبيقوري - في أثينا القديمة نظر إلى العالم بشكل مختلف عن الشكل الذي نظر إليه مؤيدو فلسفة لوقا⁽¹⁶⁾. تطور مذهب السعادة من خلال التحريب، الذي أبقى عليه كل من هيسندي⁽¹⁷⁾ هوبس⁽¹⁸⁾ وهيلفيتوس⁽¹⁹⁾ بصمات ملموسة، وتأثير في مختلف المراحل. جلب هذا المذهب لنفسه اهتمام جميع من اعتمد على المباشرة الإنسانية، ومن معجّ الخرافات الدينية أيضاً.

في الوقت الحاضر، يؤمن مذهب السعادة القديم بادعاءاته الساذجة عن الخير الكوني العام للفرد والذي يُبدّل ليصبح نفعياً، ويعبر عنه شعاره المنادي بوجوب التوصل إلى النفع الشخصي

⁽¹⁶⁾ Locke (1632-1704) فيلسوف ومنور ومفكر سياسي انكليزي - المرجع/ الموسوعة السوفيتية الكبرى المجلد 14 ص 617 - المترجم.

⁽¹⁷⁾ Gassendi (1592-1655) فيلسوف مادي فرنسي - المرجع نفسه، المجلد 6 ص 138 - المترجم.

⁽¹⁸⁾ هوبس - توماس (1588-1679) فيلسوف مادي انكليزي - يلعب علم الأخلاق (الاطيقي) عنده دور الجسر، الذي يصل بين الفلسفة والآراء الاجتماعية السياسية. المرجع، معجم علم الأخلاق - دار التقدم، موسكو ص 411 - المترجم.

⁽¹⁹⁾ هيلفيتوس - كلود أدريان (1715-1771) فيلسوف مادي وأحد منظري الثورة البرجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر. أهم مؤلفاته "في العقل" 1758 و"في الإنسان" 1733. المرجع، معجم علم الأخلاق - دار التقدم، موسكو ص 413 - المترجم.

للفرد (لو كان على حساب الآخرين)، والاهتمام بالمنفعة الذاتية. إلا أنه يحافظ في النفعية ذاتها على مبدأ السعادة التقليدي، وهو مبدأ السعادة. وفي الحقيقة، يمتلك هذا المذهب هنا سلوكاً لنسخ كاريكاتورية، تركك بحسراً بأن تتذكر الانتقادات القديمة لهذا المبدأ- أحادية النظرة.

أدخل مفهوم المصلحة بقوة إلى فلسفة العصر البرجوازي وإلى علم الأخلاق أيضاً. وانتشرت انتشاراً واسعاً تلك التصورات، القائلة بأن المصلحة تحرك الإنسان في الحياة وتدفعه إلى القيام برذائل معينة، التي في نهاية المطاف توجه العالم أجمع. غير أنه فهمت المصلحة في عصر مذهب السعادة على أنها مصلحة إنسان مفرد وتقوم بتحريك المجتمع كمجموعة مفردات. وفي الحقيقة، كان التطور اللاحق لمذهب السعادة الفني أي مذهب المنفعة يعترف بوجود مجال خاص لمشكلة مرتبطة بالعلاقة بين المصالح العامة والخاصة. وحاول النفعيون البحث عن وسائل لتخفيف هذه الصراعات بين المصالح العامة والمصالح الخاصة، وإحدى تلك الوسائل هي الفائدة، لكن المفيد يتحانس جوهرياً مع الممتع (اللذيق).

إن الفائدة هي المتعة المرتبطة باستحواذ الأشياء المفيدة.

برهن كل من هولباخ⁽²⁰⁾ وهيلفيتوس على أن الإقناع الداخلي للعقيد، محتوى ضمناً في اللذة والمتعة. وتعتبر السعادة "سوبر فائدة مفيدة" أو ما هي إلا متعة مستمرة (دائمة)، أو مجموعة من المتع.

يعتري مذهب السعادة، دون جدل، تغيرات ضمن حدود معينة، ترتبط بمبادئه، ويمكن الفصل بين المتعة والفائدة في السعادة مع بعض التبطين والاختلافات الطفيفة، لكنهما تستطيعان الانتماء إلى مذهب علمي أخلاقي واحد — هو مذهب السعادة، الذي يجب عليه في هذه الحالة أن يستوعب الشكل النظري الأيديولوجي تاريخياً.

سقط مذهب السعادة ومبادئه (مبدأ السعادة) في أيدي المثاليين من مختلف الصنوف، الذين حافظوا على ثبات المبدأ، لكنهم أجروا تغييراً في النظام نفسه وسلحوه بتراكيب وأفكار جديدة. وبهذا وصلت بعض جوانب نظام مذهب السعادة إلى المقدمة، بينما انتقلت جوانب أخرى إلى المؤخرة وتبادلت هذه الأدوار فيما بينها. أصّر مذهب السعادة، في مختلف مراحل تطوره

(20) هولباخ - بول هنري (1723 - 1789) - فيلسوف سادي ملحد، وهو من أيديولوجيي الثورة الفرنسية المرحوزية في القرن الثامن عشر - الموسوعة السوفيتية الكبرى، المجلد السابع ص 43 - المترجم.

الأخلاق العامة، على جميع مطالبه، مختصراً بذلك جميع التأثيرات الخارجية المختلفة (إذ وجد هذا المذهب كثيراً من حججه في علم النفس). وبعد هوبس، استخدموا نظرية الروابط في البرهان العلمي الأخلاقي بشكل واسع، وعادة كانوا يعتمدون على شهرة العادات والعمل على تربية الخلق. فقد مذهب السعادة بعد مادي القرن الثامن عشر الفرنسيين إمكانياته وسار على طريق التقليد واحتواء الأفكار الغريبة، التي سلخت جلده الذاتي واستنفذت قواه كنظرية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار جميع هذه الأسباب، يمكننا اقتراح التصنيف الآتي لاتجاهات مذهب السعادة (الايديمونية) في علم الأخلاق:

- (أ) - مذهب السعادة بمثاليه الرئيسيين: أرسطو وتلامذته.
(ب) - الأبيقورية، التي انتمى إليها بالإضافة إلى المعلم أبيقور، هيسندي، فيورباخ ولوكريوس كار⁽²¹⁾.

⁽²¹⁾ Titus Lucretius Carus (في القرن الأخير قبل عصرنا) - فيلسوف وشاعر، من أكثر النحسين لآراء ونظريات أبيقور في علم الأخلاق - المرجع السابق، المجلد 15 ص 58 - المرجع.

(ج) - مذهب المنفعة (النفعية) بممثليه الرئيسيين ف. ب. يكون⁽²²⁾، هوبس ولوك، وبنتم⁽²³⁾ وميل من ماديي القرن الثامن عشر الفرنسيين.

يعتبر هذا التصنيف للدارس مذهب السعادة، على الرغم من جميع اشتراطاته، كافياً لوصف أهم مراحل تطور مذهب السعادة، الذي يشير إلى نشوء وارتقاء وانحسار أفكار مذهب السعادة في مرحلة ما قبل ظهور علم الأخلاق الماركسي. ويشير هذا إلى أن مذهب السعادة بالذات هو أول من رفع شعار تأسيس أطيافا علمية (علم أخلاق علمي) على امتداد مراحل تطوره التاريخي، ذلك العلم الذي يشرح جميع ظواهر الأخلاق، ومثل هكذا علم لم يكن بالمستطاع بناءه بدون قاعدة أيديولوجية مادية جدلية. ومذهب السعادة بالذات، دعا لبحث علاقة المصالح العامة بالمصالح الخاصة، وحاول أن يعطيهم تعريفات خاصة. وأوجد مذهب السعادة في علم الأخلاق سؤالاً علمياً نظرياً حقيقياً حول أصل الأخلاق. وبفضل التدخل المادي في دراسة الظواهر الخاضعة للتحليل، تمكن دعاة مذهب السعادة تجنب المزايدات الدينية اللاهوتية بالنسبة للأخلاق والتصورات المدرسية عديدة الوزن

(22) فرنسيس بيكون (1561-1626) فيلسوف مادي انكليزي وهو مؤسس المدرسة

المادية الانكليزية في الفلسفة - المرجع السابق، المجلد 4، ص 192 - المترجم.

(23) بنتم، جيريميه (1748-1832) - منظور أخلاقي وحقوق انكليزي. من ممثلي

مذهب المنفعة في علم الأخلاق. انتقد نظريات الحس الأخلاقي والحق الطبيعي -

المرجع، معجم علم الأخلاق - دار التقدم، موسكو ص 123 - المترجم.

أيضاً، ولجؤوا إلى الجدل الاجتماعي لفهم الأخلاق، ويمكن القول: أنهم وضعوا تصورات أولية عن علم اجتماع أخلاقي. لهذا اتبع جميع أصحاب مبدأ السعادة تقريباً وبدون نقاش، النظرية التعاقدية للمجتمع، واعترفوا بالتقدم الاجتماعي والأخلاقي، أي بمجموعة الأفكار، التي حُقِّقَتْ وأُقرَّت واستمرت حية. ومبدأ مذهب السعادة، كما هو عليه، تدور الآن حوله في القرن العشرين صراعات أيديولوجية ضارية. أدى الإيمان بالإنسان وبإمكانياته وبالمستقبل، ذلك الإيمان الذي تأصل عميقاً في جوهر مذهب السعادة إلى توجيه أصحاب مبدأ السعادة إلى التفاضل الصادق والقناعة الإنسانية العميقة، التي كانت ولا تزال هي الموجه والشكل الرئيس للمواقف السياسية التقدمية الاشتراكية. من المناسب، أن نعود قليلاً إلى الوراء. حيث شهود عادة، أثناء تطور مذهب السعادة، مذهب المتعة فقط، واعتقد عندها أن كامل مذهب السعادة، ليس سوى مذهب للمتعة معدل. يمكننا ملاحظة مثل هذا التصور في "القاموس الفلسفي اللغوي" وهو من تأليف فولك وسين جان⁽²⁴⁾.

Foulquie P. et Saint- geum, R. Oictionere de la Langue⁽²⁴⁾
philosophique. Paris, 1969. p252.

لكن الأمر هنا، أن أبيقور كان قد أكد على وجهات النظر القائلة أن أهم هدف أخلاقي هو السعادة، بينما اعتبر أصحاب مبدأ المنفعة أن هذا الهدف هو اللذة. أجل، يعبر عن السعادة باللذة، لكن عندما تكون الأخيرة مطابقة للسعادة الحقيقية وتمتلك طابعاً دائماً وشاملاً، ولا تكون عبارة عن ومضة ناقصة وعرضية ونتيجة لحالة نفسية. وإذا سرنا قدماً في هذا البحث، نجد أن موقف أبيقور يختلف عن الأرسطوية، وبشكل عام، عن موقف، الذين أتوا بعده، لأنه يعتبر أن ليس من الضرورة أن تكون السعادة مصحوبة بالمتعة أو بالشهوانية، ويكفي لها فقط أن لا تترافق بأية معاناة أو آلام. إلى جانب ذلك، إن اللذات الإيجابية، حسب رأيه تمتلك سمات روحية عندما تدخل في تركيب السعادة. كما قدر أبيقور العلم والصدقة أشد تقدير. أما عند أرسطو، على سبيل المثال، فكانت جميع اللذات، بالأهمية وبالهدف الأخلاقي الأسمى، متماثلة. تعتبر عبارة مبدأ المنفعة واحدة من المراحل الأولى لتشكيل مذهب السعادة، بينما تعتبرها الأبيقورية مرحلة جذرية في تطور هذه النظرية.

يعتبر إدراك المصلحة العامة والمصلحة الخاصة والتعريف الدقيق لهما وتثبيت العلاقة بينهما، واحدة من المقاييس الآمنة، التي بواسطتها يمكننا أن نميز بين أنظمة مذهب السعادة وغيرها من

نظريات علم الأخلاق. فبينما لم يطرح مذهب المنفعة إلى الآن مثل هذه الأسئلة، التي يلي فيها الإعلان عن اللذة الخاصة، أصبح الأمر جاهزاً عند الأبيقوريين حينما أعلنوا أن اللذة لم تظهر إلى النور نتيجة لحجج منطقية، تتطلب تجنب اللذات، التي تجر إلى عواقب سيئة (للنفس وللآخرين). ولا يمكن تقييم اللذة إلا من خلال عواقبها اللاحقة. نرى أن الأبيقوريين يظهرون تبصراً واضحاً في هذا المجال، وهم لا يستخدمون كلمات مثل "مصلحة" و "منفعة" بل اختفت هذه الكلمات من قاموسهم. كما يخلق المحيط المنطقي الأصلي لمذهب السعادة الأبيقوري طرازاً، أو إذا تكلمنا بلغة العلماء، نجده يشكل بداية لما يسمى بالقياس الصرف (نظام أشكال تعليمي الفحوى) لنظرية علم الأخلاق، التي ظهرت إلى النور كاملة عند فيلفيتوس وبتنام. وتستخرج أفكار المصلحة والمنفعة (الفائدة) عند الضرورة من البرهان على مبدأ اللذة، بقدر ما يتوجب إثبات بروز مساعي الإنسان الفرد، لتحصيل اللذة والسعادة الشخصية على التوازي مع مساعٍ مماثلة لأجل الناس الآخرين. ومن وجهة النظر هذه، تُرى نهاية الأبيقورية كبداية لمذهب المنفعة. لأنه عندما بدأ ظهور سؤال حول وسائل تحقيق الدعاية لمنهج الأبيقورية الروحي، سرعان ما أصبح من الضروري إظهار كيفية التوفيق بين مساعي الفرد ورغباته ونظائرها للناس

الآخرين في المجتمع. إلا أنه يجب أن لا ننسى، أن علم الأخلاق القديم، كرس معظم جهوده لتشكيل الأهداف الأخلاقية والبحث عنها، مضيفاً إلى ذلك ما خصصه من وسائل لازمة لتحقيقها. ووقع عائق تنفيذ المهمة الثانية (مهمة إيجاد الوسائل) على علم الأخلاق الحديث والأكثر حداثة. كما ظهر عند الماديين الفرنسيين تصور يقول أن علاقة الفرد بالمجتمع والمجتمع بالفرد هي جوهر ذي جانين للعلاقة نفسها. أما الآن، فأصبح السؤال عن ماهية السعادة أهم من السؤال عن كيفية التوفيق بين المساعي الفردية الخاصة للوصول إلى السعادة والمساعي المماثلة عند بقية الناس، إذ أن موضوع الحديث عن هذه المساعي هو كل واحد. إن فكرة السعادة - هي أحد - أكثر الأفكار قدماً في تاريخ علم الأخلاق. ولا نكون مبالغين إذا قلنا أنها تعتبر إحدى أهم الأفكار العلمية الأخلاقية والاجتماعية الخصبية. وما يميزها هنا هو أنه انطلاقاً منها بالذات بدأت نظرية علم الأخلاق بالتشكل والانبثاق بهذه الدرجة أو تلك، وبعد ذلك تشكلت جميع الاتجاهات الأخرى في علم الأخلاق من مذهب السعادة ونقيضه. وعلى الرغم من انفراد فكرة السعادة بخواص متراصة وبالمعنى الشائع مرتبطة بشكل دراماتيكي مع تصورات معينة عن كلية الطبيعة البشرية، فهذا لم يمنع أن تكون هذه الحالة هي التي حددت

لوحه مذهب السعادة، أي غنى أفكاره، والرهانات المختلفة، التي دارت حوله وحيوية مستقبله التاريخي.

جوهرياً، لا يمكن فصل فكرة السعادة عن فكرة الوجود الإنساني، أي عن التصورات الفلسفية العلم أخلاقية ورغبات وحاجات الإنسان. وهذه التصورات مرتبطة بالإنسان نفسه وبتطوره، لأنه عند الضرورة لا يدور الحديث إلا عن حاجات معينة عنده وعن إرضائها. لهذا يمكن لدعاة مذهب السعادة أن يخلقوا مسائل للفلاسفة تتعلق بتلك الأعمال المنطلقة من شعار: الإنسان - معناه إنسان سعيد.

تضمنت هذه القضية على معضلة علم أخلاقية تقليدية هامة: هي علاقة الفضيلة بالسعادة. تشكل في التاريخ الفلسفي القديم وبسرعة ثلاثة أجوبة على هذه القضية: بعضهم سعى لتفسير معنى هذه القضية، آخرون عرضوها معتمدين على الأوضاع الفلسفية العامة واعتبروها الوحيدة فقط، التي يمكن لها أن تعبر عن ما يميز الطبيعة البشرية، أما الأبيقورية فأكدت على ارتباط السعادة بالفضيلة ارتباطاً متبادلاً.

يعتبر طرح السؤال عن سلوك الإنسان ونشاطه، اللذان خارجهما لا يمكن الحديث عن الأخلاق البائنة، إحدى أهم

مناقب علم الأخلاق، المقدمة لمذهب السعادة، ولأنه كان أول من طرح هذه المسألة.

الإنسان الأخلاقي - هو إنسان الفعل بجوهره، يكشف عن مميزاته ويعتبر الوسطة الفعالة للتأثير على محيطه. لكن بقدر ما يتطابق هذا التأثير مع مقياس حقيقته (جوهره)، بذلك القدر يتوجب على علم الأخلاق أن يصبح نظرية عامة عن الحياة البشرية السعيدة.

دفعت مسألة السعادة، أثناء اصطدامها مع روح العلاقة الفاعلة مع الوجود (الكون) دعاة مذهبها لكي يفهموا معنى الحياة بشكل دقيق جداً ومحدد.

ضُمَّتْ مشكلة الإنسان السعيد - ذات النفس الاجتماعي، الموضوع في الماضي الأشيب بشعارها السائد ذاتها الجواب عن مسألة: كيف يكون الإنسان سعيداً؟ هل من المفروض أن يجري الحديث هنا وفي هذه الحالة بالذات عن أوضاع بسيطة واضحة معاشة تتعلق بروح الإنسان أو بأفعاله؟ وعلى الرغم من أن مذهب السعادة درس نفسية الفرد مطولاً، إلا أنه اصطدم، قبل كل شيء، بمشكلة كبيرة في علم الأخلاق، تتعلق بمغزى حياة الفرد، معنى كل فعل ورذيلة فردية.

ركب مذهب السعادة، بطريقته الخاصة، ثنائيات رئيسية لعلم الأخلاق الما قبل ماركسي — هي الإحساس والتفكير، الانفعال والمنطق، الجسم والروح. وبهذا المعنى، يمكن القول أن مذهب السعادة وعلى امتداد مئة عام قام بتنفيذ دوره النظري بنموذج عام لعلم الأخلاق الما قبل ماركسي، الذي بعمقه وباختلاف أفكاره واتجاهاته خدم بطريقته الخاصة كمؤشر لأبحاث فكرية تقدمية علمية أخلاقية وأدخلها في الفلسفة. كما حرك مذهب السعادة الفكرة الخيرة، القائلة أن الروح هي قبل كل شيء فعل يوصلنا إلى نتيجة جد معينة لكل فرد على حدة، على الرغم من أن هذه الفكرة حملت إلى نفسها من مبادئ مذهب السعادة صفة المحدودية الفلسفية أو مرة أخرى الرومانسية الرجعية، التي منها فقط، يمكننا استتجار تصور للاكتشاف العلمي الهام من أجل كامل نظرية علم الأخلاق الما قبل ماركسي، التي فيها يظهر الإنسان هنا ليس كمجال للبحث فقط، بل كذات فعل أخلاقي أيضاً. يتعرف الإنسان ذاتياً على السعادة، المتعة والألم عن طريق النشاط. ينحصر السؤال الثاني في عدم استطاعة دعاء مبدأ السعادة رفع مستوى الفعل والذي يتوقف عليه كشف المجال المحدود لتأثير يحمل الأخلاق. إلا أن طريقة تركيب السؤال حول العلاقة بين السعادة والنشاط، أدت إلى توجيه نظرية علم الأخلاق

إلى أفق تاريخي بعيد، بما أنها تشكل مقياساً لتقدير الأخلاقي والاجتماعي في فهم طبيعة الأخلاق.

وهنا يجب إضافة العامل الميتافيزيقي، ذي المدخل المادي للأخلاق إلى جانب جميع العوامل الموجودة في نظام مذهب السعادة. اضطر مذهب السعادة، أثناء مناقشاته حول الأخلاق والعمل، أن يلجأ إلى الدفاع التلقائي والعشوائي، الذي يفهم السجية كفضيلة للقدرة الأخلاقية للفرد. وتحولت الأخلاق عند ذلك إلى سمة غير متغيرة (ثابتة) للشخص. بهذه الحالة تصبح الأخلاق غير قابلة للتطور وللتناقض الداخلي وللتغيرات الثورية، وأُعترف فقط بأخلاق وحيدة وعامة لجميع الناس. واختفت جميع الفروق الفردية والفروق بين الظواهر الأخلاقية عند الناس من مجال الرؤيا. ويصبح أكثر صحة القول: أن الأخلاق الإيجابية تطابقت مع الأخلاق الساكنة.

لا يجب أن لا نستسلم، في هذا المجال، لشعور الفخر، بقدر ما سئم الذوق الحديث من إمكانيات التطور، ومن الأفضل أن نؤكد أن الأمر الحقيقي هو علم الأخلاق المستحسن في تاريخ علم الأخلاق: في هذه الحالة، أقدمت المادية ومذهب السعادة على توجيه المعرفة باتجاه المسألة الحقيقية، باتجاه النوعية وجوهر الإنسان كوجود فيزيائي وذات اجتماعية، في الوقت الذي كانت فيه

المثالية ومذهب الواجب تبعد علم الأخلاق والفلسفة عن الحقيقة وتقربه من حالة التصور المجرد والأفكار المسبقة.

يعتبر مذهب السعادة، أحد أكثر أنظمة علم الأخلاق قدماً في معرفة الأخلاق، تلك المعرفة الناجمة عن الخبرة الفردية والمرتكزة على إحساس الشخصية ذاته. ومن وجهة النظر هذه، يصبح مذهب السعادة أساساً لمضمون نظرية علم الأخلاق، لأنه تطور من التجريبية وصولاً حتى التنظير الرفيع، ومن التأمل الحسي إلى التفكير المجرد وصولاً إلى المعرفة المنظمة للأخلاق العملية. فسرت أخلاق مذهب السعادة بأنها معرفة الإنسان في علاقته مع ذاته ومع الجو الاجتماعي المحيط به.

لم تكشف هذه القدرة الفريدة للإنسان ومختلف أنواع الأفراد والحياة البشرية فحسب، بل منحتنا وسيلة لتوحيد هذه الاختلافات والرغبات لتصبح هدفاً أخلاقياً نهائياً - هو السعادة. يتساوى الناس أمام السعادة وتخضع لها كل أمانيتهم.

لم يستطع مذهب السعادة، الذي تشكل في عصر التراكم الأولي للمعارف عن الأخلاق في الفلسفة وعلم الأخلاق، أن لا يقف في صف العقل السليم، ولا أن يتعد عن إظهار الأشياء الأكثر وضوحاً والأكثر شيوعاً والأكثر ملائمة للأخلاق، وعن تقديم تصور واضح عن نتائج التفكير الاعتيادي وسلوك الإنسان

في مجال الأخلاق. إلا أنه، يجب القول، أنه لم تقف أمام نظام علم الأخلاق هذا ولو لمرة واحدة مسائل كبيرة: على سبيل المثال، حول مقاييس التوفيق بين مقولات السعادة ومفاهيم مثل المجد، الثراء، الصحة، النجاح والنبيل وغيرها. لأنه ومن وجهة نظر العقل السليم، يتضح أن بين هذه القيم اختلافات كبيرة، حتى أنها أحياناً تؤثر بشكل مختلف على الإنسان وأخلاقه. يتعلق طرح مثل هذه المسائل وغيرها بديناميكية الأخلاق ويكون عادةً حافزاً للتطور. وعلى الرغم من ذلك، أوصلت هذه المسائل الأخلاق إلى طريق مسدود أو إلى مذهب الشك.

توجه مذهب السعادة، كما أشرنا سابقاً، إلى الخيرة الأخلاقية الاعتيادية للفرد وعمم نتائجها. لهذا لم يكن مشروطاً بنجاحات النظام العلم — أخلاقي هذا فحسب، بل وتناقضاته أيضاً. حدد العقل السليم غنى وتلاوين الظواهر الأخلاقية، موضوع البحث، وبجميع تصوراتها الذاتية استقر عند حدود الفرد. وظهرت، نتيجة لذلك، تناقضات داخلية في النسيج النظري الخاص بمذهب السعادة:

(1) بين السعادة والخير.

(2) بين السعادة كبرنامج أخلاقي إيجابي والأنانية في ظروف محددة بالضرورة المستحرة، نتيجة لانتشار مقدمات وبراهين المبدأ الرئيس للنظام.

(3) بين الأخلاق وصفات الإنسان خارج مجال الأخلاق (حقيقية، طبيعية).

(4) بين الحقل الكموني الأخلاقي المعلن والمشكلة الأخلاقية الحقيقية للشخصية.

التناقض بين السعادة والخير

رافق هذا التناقض كامل تاريخ مذهب السعادة، ويعتبر إلى درجة ما برهاناً أكيداً على درجة نجاح تطور مبدأ مذهب السعادة بشكل عام. والأمر يعود هنا إلى أنه ليس من المؤكد، وفي جميع حالات السعادة، المفسرة كمقياس علمي أخلاقي أن تتطابق تماماً مع الأخلاق. وفي الحقيقة، يمكن القول أن مذهب السعادة لم يستطع في كامل تاريخه الطويل أن يثبت تماثل السعادة أو بشكل أدق تطابقها مع أهداف الشغيلة الأخلاقية ومع التقدم الأخلاقي بشكل عام. وبرزت هنا مراراً مشكلة قريبة من تلك، التي تميز بها الدين، إذا كانت الأخلاق قريبة إلى هذا الحد، فمن أين ظهر الفساد وأين جذوره، ولماذا بقي الإنسان تعيساً؟ إلى جانب ذلك، يؤدي الرهان على المآثر الفردية، التي صنعها مذهب السعادة إلى التصديق على أية عواقب اجتماعية ناجحة قلما تتوافق مع الأخلاق. وبسبب سلوك هذه الذات تسنى، باسم هذا الخير الخاص أو ذاك، للشر أن يقع.

بقدر ما كان يعتبر أحد التفسيرات الممكنة للجانب العملي من برنامج مذهب السعادة تفسيراً أنانياً للسعادة، بذلك القدر قام أعداء هذا المذهب ومنذ القديم باستخدام عقب أخيل هذه النظرية، مقدمين لما يسمى بالتفسير الأناني المذكور للسعادة وزن الوجه الحقيقي لهذا المبدأ.

لكن، إذا نظرنا إلى هذه المسألة بخصوصية ما وبالتوافق مع الجوهر الداخلي لنظرية مذهب السعادة، فنصل إلى الاعتراف بما أعلنته هذه النظرية من مطاردة غير جادة وراء اللذات والشهوات وبالبرنامج الضعيف التوازن، الذي صنعه لبناء السرور، الذي تستحقه حياة الإنسان، على الرغم من أن هذا البرنامج يحتوي على وسائل ضبط أخلاقية، موجهة إلى تقليص المصالح الشخصية، التي تتعارض مع مصالح الناس الآخرين.

إن ما يميز مذهب السعادة إلى حد ما في كامل علم الأخلاق ما قبل الماركسي، هو تفوق التقديرات الأخلاقية والعلم - أخلاقية على جميع التقديرات الأخرى لفهم الحقيقة وتلك الظواهر، التي لا تدخل ضمن مجال الأخلاق، انطلاقاً من وجهة النظر الأخلاقية. وبهذا الخصوص، يجدر بنا أن نتذكر ما قاله فلاديمير إليتش لينين عن الماركسية وعلم الأخلاق: إن كل الماركسية لا تحتوي على ذرة واحدة من علم الأخلاق، هذا ما قاله أثناء جدله الحاد مع

الناارودنيين. ومعنى ذلك، أن علم الأخلاق ليس هو الذي أدخل إلى الماركسية المفهوم الإيضاحي لمجريات التاريخ الاجتماعية، لكن على العكس، فقد تم فهمها بالعلاقة مع النظرية العامة لعلم الاجتماع والفهم المادي للتاريخ.

سعت جميع أشكال وتلاوين المادية ما قبل الماركسية ومذهب السعادة إلى كشف طبيعة الأخلاق الناتجة عن تأثير عامل طبيعي واضح مستقل، وأعلن أن هذا العامل، هو رغبة الخير، اللذة والرغبة في تجنب المعاناة.

أدى التعامل مع القواعد الفيزيولوجية والنفسية لسلوك الفرد في نظام مذهب السعادة إلى إسراع ضرورة التوفيق بين الأفكار والتصورات ذات الأشكال المختلفة.

كان ارتقاء مذهب السعادة على الشكل الآتي: أخذ مذهب المتعة يتنحى عن مكانه للأبيقورية، وبعد ذلك تنحت الأبيقورية لمذهب المنفعة وتصوراته "الأناية المنطقية". وكلما كان مذهب السعادة يبتعد عن بساطته الأولية وطبيعة مبدئه الرئيس، كلما كثرت المسائل الاجتماعية، الواقعة ضمن رؤيته وكلما أصبح يتكرر استكمال المادية المنطقية التسلسلية بالميتافيزيقيا لا بالمثالية، في شرح كامل مضمون الظواهر الأخلاقية. وأصبح إخراج الأخلاق من طبيعة الفرد عملاً صعباً جداً، واتضح أن الفرد نفسه

أكثر تعقيداً وتعدداً للجوانب بالمقارنة مع "نمط الأنا"، الذي كان قد عرضه مبدأ مذهب السعادة.

كان التناقض بين التصور الضيق للمفهوم الأخلاقي لسعادة الفرد وقدرات أفكار السعادة على التطور، واحداً من أهم التناقضات، التي ظهرت في تاريخ نظرية مذهب السعادة بشكل واضح وجلي⁽²⁵⁾. والأمـر يتعلق هنا في عـدم إظهار مذهب السعادة، الفرد كمصدر وحيد للأخلاق فحسب، بل لم يأخذ من الفرد نفسه إلا ما انتمى إلى مشاعره فقط.

أثر حصر معالجة المشكلة ضمن محالي المعاناة واللذة بشكل محسوس على تحديد إمكانيات البحث العلمي الأخلاقي. كما قدم حصر نشاط الإنسان بين هذين القطبين - المعاناة واللذة - لوحة ناقصة ومشوهة عن النشاط البشري. وتبين أنه ليس من السهولة أو من الوضوح والأمانة قياس اللذة والمعاناة عند الحكم على الأخلاق، الأمر الذي يؤدي عادة إلى التضليل، لأن السعادة وقبل كل شيء، يجب أن تكون مرتبطة بتحقيق هدف ما مسبق التحديد، الذي بدوره لا يمكن أن يتعلق باللذة ذاتها فقط.

⁽²⁵⁾ مفهوم السعادة الفردية، أو مذهب السعادة، هو مفهوم أساسه يعتمد على التأكيد على أن هدف الأخلاق هو سعادة إنسان فرد - المؤلف.

يصادفنا سؤال ممتع، ذي فحوى علمي أخلاقي تاريخي، نتج عن تحريك مذهب السعادة للذة، وإخراجها كهدف أخلاقي سامي. وأثناء ذلك كان يجهل أن هذه التخومات، التي كشفت بشكل متأخر، تؤدي إلى خلخلة في أوزان الأخلاق على المستوى العالمي، إذ كان مذهب السعادة متحرراً حتى من الاتهام بالريائية، التي ظهرت مؤخراً وكانت عنواناً لنظريات علمية أخلاقية عديدة عبر التاريخ البشري.

تمكن مذهب السعادة، بعد أن تبنى طرق المذهب الطبيعي لفهم الإنسان، من التخلص من جميع هذه العقبات، وتوقف عن طرح الأسئلة، التي تستفسر عن فصل الأخلاقي وعن حتميات الأخلاق المتعددة الجوانب (مثل التأثير الخارجي على الأخلاق، أو تأخير الأخلاق على ذاتها). أخضت طبيعة الفرد بالارتباط مع طبيعة الأخلاق مشاكل أخلاقية عديدة وهامة، ومكنت بهذا القدر أو ذاك، وأحياناً بنجاح مع جمع النهايات مع البدايات وإعطاء تحليل عن الأخلاق يقول أنه مبدأ متدرج لنشر السعادة.

وجه مذهب السعادة، السعادة ذاتها إلى الطبيعة الحسية للإنسان الموروثة بيولوجياً بالفعل. ومن هنا يمكن فهم السعادة على أنها (عيدٌ للطبيعة) وتمجيد لها. اعتبر مذهب السعادة أن الطبيعة تصل إلى تطورها واكتمالها الطبيعي الخاص الأسمى بواسطة

السعادة. ويستطيع الإنسان السعيد كشف الجمال الأخلاقي للطبيعة. والأخلاق هي تلك القدرة والإمكانية عند الإنسان ليصبح سعيداً.

يساعد إدراك جوهر مبدأ السعادة كنظرية علمية أخلاقية نظيره السليبي أيضاً - علم الأخلاق المسيحي، الذي تعتبر عبادة المعاناة والآلام حجر الزاوية وأهم المبادئ فيه. والحق يقال، أنه يمكن تسميته بنقيض مذهب السعادة (لأننا لا نستطيع أن نسميه بفلسفة التعاسة). ويصادفنا في علم الأخلاق المسيحي إعلاءً لحس الإنسان الطبيعي، لكن هذه الطبيعة مصبوغة بالألحان التشاؤمية المظلمة ومؤسسة على النفوذ الخارق لها، ذلك النفوذ المشحون بتناقضات مدمرة وصعبة الحل.

في مذهب السعادة، تطلب الاعتراف بأمنية السعادة كسمة جوهرية للإنسان، أن تبحث لتجد لها مكاناً مناسباً ضمن أطر نظام علم الأخلاق، وقدمت هذه الأمنية الآن كمبدأ شامل بالترافق مع طموحات وأحاسيس الإنسان الأخرى. ويبرز، قبل كل شيء، سؤال حول العلاقة مع العقل كمنبع موجه لأخلاق الفرد. وقد تم تخطي هذه الصعوبة في بناء نظام علم الأخلاق من قبل مذهب السعادة بواسطة انصياح العقل للأحاسيس، أو بمعنى أدق، انصياح العقل لشعور المتعة والمعاناة. ويعتبر العقل، حسب

مفاهيمهم، عبارة عن آلية (ميكانيزم) حسابي فقط، مضبوط على قواعد مشاعر الفرد من أجل العمل الأمين. وتصبح القوانين الموجهة للأحاسيس هي مبادئ العقل. وعند ذلك لا يجوز عدم إغارة الانتباه إلى ما قاله دعاة مذهب السعادة من وجهات نظر مخالفة لذلك، والتي كانت أحياناً على درجة كبيرة من الأهمية. أما الأبيقوريون فقد فسروا السعادة على أنها متع مفلتة ومؤسدة، ولم يدخلوا في مجال تلك المتع (الملذات) غير الملتزمة بالحكمة. لكن وكيفما اختلفت وجهات نظر دعاة مذهب السعادة عن الإنسان وطبيعته الأخلاقية، يبقى اللوم يلقي على كامل هذه النظرية بسبب سكونية اللوحة الأخلاقية المرسومة من قبلها، التي لم تعترف بالإبداع الأخلاقي الخاص بالإنسان. وبحقيقة الأمر، أعلن عن هذا الإبداع كشعور مسبق البرجة، محكوماً عليه هدر الحياة في ملاحقة الملذات والمتع وإرضاء الشهوات، التي يمكن أن تكون عبارة عن رذائل.

هل كان من الضروري امتلاك خبرة أخلاقية قاصرة جداً في تقدير سلوك الإنسان، من جهة، ودائرة محدودة جداً من المعارف عن الإنسان ومن الوسائل النظرية المقومة لسلوكه من جهة أخرى، لكي نستطيع تقييم إمكانياته الأخلاقية وقدراته على التطور؟. لهذا يُقدم التطوير للوسائل النظرية والتسوية الأخلاقية

الأكثر حذراً، على أنه أحد أسباب تطور نظام مذهب السعادة.
لنقارن على سبيل المثال بين أبيقور وفيورباخ.

هنالك أولاً، حيث يعلن بروح الإثبات (هكذا فقط
هكذا)، وثانياً، عندما يصب هذا عادة في لحن وعظمي، موجه
لتوصيل القارئ إلى الطريق المؤدي إلى هدف ترغيبي، الذي فيه
تختفي الوثوقية الكاملة، التي لا يستطيع القارئ عندها أن لا يسم
وراء هذا الهدف. وهنا يتراود إلى ذهننا أن ما حصل كان من
جاء تأثير الأسباب المذكورة أعلاه، وليست تلك، التي تسمى
بالأحكام الوعظية المتفلسفة: "كلما كانت معارف محدودة، بذلك
القدر أصبح أكثر ثقة ووثوقية". هيهات النجاح، نورد هنا وضمن
قوسين وصفاً لمذهب السعادة - (وهو بالحقيقة، ظاهرة تاريخية في
الثقافة الأخلاقية البشرية زائد المواصفات الوراثية الفردية
للشخصية، التي من الممكن أن نتعرف عليها في الأبحاث العملية
والنفسية الخاصة في القرن العشرين).

في نهاية هذا الفصل، نعرض وبشكل مختصر تلك المسلمات،
التي توصل إليها ودافع عنها مذهب السعادة الكلاسيكي:

- 1- إن النشاط الإنساني بشكل عام والأخلاق، المأخوذة
كهدف ونتيجة واحدة هما متكافئتان.
- 2- إن الهدف الأخلاقي والسعادة متكافئتان.

3- ينحصر جوهر الفرد في السعي إلى السعادة.

4- للأخلاق وللسعي إلى السعادة مدلول واحد.

تشكل هذه المسلمات الهيكل المنطقي المفهومي لنظرية مذهب السعادة وتحتوي على علامات شديدة الأهمية لإثبات قضية سعادة الفرد. وتعتبر إلى جانب ذلك، القاعدة النظرية والعملية لمذهب السعادة وتخدم في مضمار الأبحاث حول الظواهر والعلاقات الأخلاقية المعقدة. وإلى جانب المقدمات النظرية فإن هذه المسلمات تتضمن إرشادات محددة لقواعد السلوك.

تتميز هذه المسلمات بأهمية كبيرة في الكشف عن جوهر السعي البشري، نحو السعادة، الذي يظهر بطرحه لمسائل رئيسة تبحث في طبيعة مذهب السعادة، ومسائل تطرق، على الأخص الموضوع التالي: كيف ومتى يتحول السعي نحو السعادة إلى أنانية. أين يكمن معنى المطابقة بين النشاط الإنساني بشكل عام والأخلاق، التي تفترض تحقيق مذهب السعادة في مسلماته الأولى؟ يفسر هذا الأمر، حينما نستخدم طريقة التصور الكمالي في هذا النظام من علم الأخلاق. يؤخذ مفهوم الفرد، بالتوافق مع هذه الطريقة، ليس كمجموعة مشاهدات تأملية مفترضة وتصورات صدفية معمة، بل بنوعية المفاهيم النظرية، ذات المضمون الذي يمتلك نقاءً واحتواءً مشبعاً، وينظر إلى الفرد هنا كتحديد جوهري

للطبيعة الإنسانية بشكل عام، ويعتبر مصدراً للمعاشرة ولجميع العلاقات السائدة بين الناس. وفي الحقيقة يمكن القول أن التصور الكمالي كطريقة لبعث الحقيقة عندما تكون المعرفة العلمية غير متطورة، لا يستطيع شق طريقه بدون تخيلات شعوزية كثيرة مرادفة. ومن المناسب هنا أن نشير أخيراً إلى أن كلاً من بتام وجون ستيوارت ميل اكتشفاً آفاقاً واسعة جداً في نظام مذهب السعادة. وأكثر من ذلك، يمكن القول أن هوية الأخلاق والسلوك تقترحان التوقف في البحث عن المرتكزات الموضوعية للأخلاق خارج أطر حياة الفرد، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى التوصل إلى لوحة خيالية عن الأخلاق أو تفسير ذي شكل مشوه لها. وفي الوقت نفسه، يجب أن نتذكر يوماً هذا أيضاً: لا سيما أولئك العلماء الماركسيين، الذي يستخدمون مقولات السلوك العلمية أثناء معالجتهم لمسألة المادية التاريخية وعلم الأخلاق، إذ يمكنهم أن يقعوا تحت أخطار السهو عن المرتكزات الموضوعية للقضايا المبحوثة.

لم تسمح هويتنا الأخلاق والسلوك لدعاة مذهب السعادة كشف الدور، الذي تقوم به الأخلاق في المجتمع. ومن الصعوبة بمكان للإنسان، الذي يكون في هذا الموقع، أن يفسر سبب بحى الأخلاق بواسطة التوجه الروحي للبشر، ويكون خياراً بين أمرين

فقط هما الخير والشر، لأنه في هذه الحالة تنحصر الأخلاق والسلوك في المعاناة النفسية وأحاسيس وتغنيات الشخص. أغلقت قضية مبدأ السعادة، بنموذجها النفعي بشكل خاص، الطرق أمام إدراك السببية الاجتماعية وفهم الأخلاق كوحدة وعي وسلوك واعتبارهما ظواهر تخدم الظروف التاريخية المعينة، بدلاً مما كان قد أشير إليه هنا وهو البداية الواقعية. أما مذهب السعادة العلمي الأخلاقي فقد اعتمد على الحياة في فهمه للأخلاق - سلوك البشر.

أدى تقييد الإنسان كفرد، ونشاطه الحياتي كسعي للسعادة، إلى تأطير مذهب السعادة لنفسه بأطر ضيقة أثناء معالجته لمسأله. وتوصل هذا المذهب إلى ذلك الأمر، الذي أشار إليه أعداؤه - دعاة مذهب المنفعة - وهو التسوية العلمي الأخلاقي للفردية والأنانية بدلاً من التسوية الأخلاقي، الذي يسعى إليه الإنسان حقاً. بالإضافة إلى ذلك، يجب التنويه هنا إلى وجود مبدأ لاهوتي في قاعدة نظام مذهب السعادة⁽²⁶⁾ : فسرت حالة الفرد النفسية لاهوتياً - وهذا واضح جداً في مؤلف جون ستيوارت ميل

(26) الغاية - مؤسسة على تصورات بوجود أهداف مسبقة لإنسانية في الطبيعة والمجتمع.

”الحرية“ ومؤلف سبنسر⁽²⁷⁾ ”علم الأخلاق الاجتماعي“. يعتبر هذان العملان حقاً من النماذج الكلاسيكية للدفاع عن الحرية. دافع كل من ستيوارت ميل وسبنسر عن الفردية واعتبراها أساساً للنشاط الإنساني، التي تضمن المساواة والحرية كعوامل للتطور الاجتماعي.

ولدت مطابقة الأخلاق مع النشاط الفردي، والوعي الفردي مع منبع الأخلاق، عندما تظهر كمشروع ذي نفوذ واسع لكل فعل، في مذهب السعادة، صعوبات جدية. والأهم من ذلك، هو أننا أصبحنا انطلاقاً منها لا نستطيع تفسير اللزوم (الوجوب) بالنسبة للفرد، وقواعد السلوك الواجبة والمتطلبية منه أيضاً. وحتم هذا الأمر، الوقوع بين الوعي الفردي وشرطه الاجتماعي.

خرج مذهب السعادة، أثناء عملية استيعابه للأخلاق، خارج أطر الباعث الأخلاقي الخاص، مدخلاً هنا جميع الظواهر، التي سميت بهذا الشكل أو ذاك، انطلاقاً من وجهة النظر الأخلاقية. وحصلت، نتيجة ذلك، لوحة الباعث الأخلاقي على تفسير ضيق وتقريبي: سعى الإنسان للذات فقط وتجنب الآلام والمعاناة.

(27) سبنسر - هربرت (1820-1903) - فيلسوف وضعي انكليزي، من ممثلي الأطياف الارتقائية. المرجع: معجم علم الأخلاق - دار التقدم موسكو. ص 221 - المترجم.

مطابقة السعادة مع اللذة، والتعاسة مع المعاناة.

تؤكد الطريقة الاستقرائية بمواقفها على هذا التطابق. أما التفسير الميتافيزيقي فبدل على معرفة سطحية بالحقيقة. يعتبر التعارض بين اللذة والألم أمراً بديهياً وهو- ذلك الجسر، الذي يصل بين الغرائز والمصالح والحاجات الإنسانية، لكن إذا حاولنا تفسير الأخلاق بواسطته، فإننا لا نصل إلى الهدف. إن اللذة والألم هما جوهر المشاعر والأحاسيس، الميزة لكل مجتمع على حدة. ولا تكفي الكلمات هنا لوصف ما يميز الفعل الإنساني والأخلاق. ويعتبر هذا مؤشر لا يخص النشاط الأخلاقي. ومن الطبيعي أن يقودنا هذا الأمر إلى التفكير بضرورة المفاضلة بين تفسيرات المصالح الرئيسة للإنسان وحاجاته. كان كروتوف⁽²⁸⁾

(28) كروتوف. ن. ن. الأخلاق في الأفعال، موسكو 1977 ص 63، 72.

محققاً بإشارته حين قال: "يمكن استخلاص الأشكال الرئيسة التالية،
من علم النفس الماركسي، لمصالح وحاجات الإنسان:
أ - المعيشية (الأولية، وتنتمي لها حاجات كالطعام، الملبس
وغيرها).

ب - الأمان (الاطمئنان) - الحياة الراسخة المهدوء.

ج - المعاشرة.

د - الاعتراف الاجتماعي (احترام الناس الآخرين، النفوذ،
الارتقاء في السلم الوظيفي).

هـ - الاحترام الذاتي، التقدير الذاتي العالي.

و - إظهار المقدرات (تحقيق ما يستطيعه الإنسان،
الإبداع...)

يؤكد العالم السوفييتي على الدور الكبير لجميع الحاجات
السابقة الذكر (وليس فقط المعيشية) في السلوك، ويشير إلى
وجوب الأخذ بعين الاعتبار، أنها جميعاً خارجة عن الأخلاق.
وفي الوقت نفسه يمكن أن تكون الحاجات ذات أساس نفسي
أمين أيضاً للسلوك الأخلاقي - وهي حاجات أخلاقية بالذات⁽²⁹⁾.

(29) كروتوف ن.ن. الأخلاق في الأعمال، موسكو 1977، ص. 62، 63.

تعتبر المسألة المتعلقة بالحاجات الأخلاقية، مسألة جديدة، ظهرت للبحث في علم الأخلاق الماركسي في الأعوام القليلة الماضية فقط. وظهرت آراء كثيرة ومختلفة لتفسيرها حتى الآن: يعتبر بعضهم، أنه لا يجب الارتياح كثيراً بقرب احتلالها موقعاً مناسباً في مذهب السعادة وفي المذهب الطبيعي بتشكيل عام، ويدعون إلى استيعاب الحاجات الأخلاقية كمنع غريزي لأخلاق الإنسان المضمون بأمانة من قبل صحة تصرفاته. آخرون يرون العكس تماماً، ويؤكدون على آداب هذه الحاجات (التكليف، التصنع). وحسب وجهة نظرنا، التي يظهرها كروتوف بنجاح، تبرز المقاييس الماركسية لتفسير مقولة "الحاجة الأخلاقية" التي تكون بعيدة عن المحدودية، التي اتصف بها مذهب السعادة وكانت بعيدة عن دفاع مذهب النسيية أيضاً. ويعتبر هذا، أولاً، اعترافاً بالدور الحاسم، الذي تلعبه الظروف الاجتماعية والتربية في تشكيل ما يميز الوعي الأخلاقي للفرد، ورابعاً وأخيراً، اعترافاً بضرورة التفاعل بين الجو الأخلاقي لوعي الشخصية والجوانب الأخرى لسيكولوجيا الإنسان في ظروف خاصة من نشاطه الحياتي، وقبل كل شيء، مع كامل مجموع المصالح المادية والحاجات⁽³⁰⁾. ويجب التأكيد هنا على المقاييس الأكثر أهمية

(30) المصدر السابق ص 68 - 70.

وإهمال الأخطاء المتأصلة التي نصادفها في النظريات العلمية الأخلاقية المرتكزة على فضح جميع أسرار الأخلاق مرة وإلى الأبد، لا سيما تلك التي تشير إلى أن كامل العالم الاجتماعي للأخلاق يقع في الحاجة الأخلاقية.

”إن كل عامل داخلي مفهوم لدى الفرد، هو عامل أخلاقي يؤثر على الفرد كحاجة أخلاقية“⁽³¹⁾. من الطبيعي أن يعتمد مذهب السعادة كنظرية علمية أخلاقية، بشكل رئيس على الماضي - جراحاً مقياس المذهب الاستقرائي من موقع نظرية العلم الحديث في الأخلاق، أي علم الأخلاق الماركسي، ولكن إذا أخذناه بالمعنى المادي للموس وأخذنا بعين الاعتبار تفسيره للسعادة واللذات والهدف الأخلاقي، فإنه يصبح جراحاً أكثر. تعتبر اللذة كمنبع وكشكل للتعبير عن السعادة مقياساً صعباً وغير أمين للفعل الأخلاقي. فعلى سبيل المثال، يمكن القول أن اللذة هي إحساس جسماني (متعة ذات منشأ فيزيائي) أو هي عبارة عن خادم لهذا أو لذاك من أعضاء الحواس - البصر، السمع، اللمس والشم، وإذا تابعنا الحديث، يمكننا أن نتحدث لاحقاً عن اللذة غير الموضوعية شعورياً، التي نصادفها ببساطة في النشاط الإنساني الحياتي: تميز الموسوعة الفلسفية البريطانية - الأمريكية، ستة أشكال

(31) المصدر السابق ص 72.

من التفسيرات لهذا المفهوم: الشعور الحسي (الجسماني)، الإحساس بالتوافق مع عوامل الوعي، مجموعة كبيرة ذات طبيعة خاصة من مظاهر الرغبة، ناتج تحقيق الرغبة، الرغبة كأثر للنشاط الواعي المقدر وللانفعالات. إن كلمة اللذة، حتى عندما نأخذها كظاهرة سيكولوجية، لا تعتبر مؤشر قريب وذا معنى، كما أنها ليست نقطة انطلاق ولا حافزاً أولياً لفاعلية الإنسان.

المشابهة بين السعادة واللذة - جلبت هذه المتشابهة إلى مذهب السعادة صعوبات وخلقت في تاريخ علم الأخلاق نظاماً من الحجج المتضادة والمبادئ المختلفة. واعتبرت السعادة عبارة عن سلسلة من اللذات من أجل هدف أخلاقي، يجب أن يخضع له كامل الوجود الإنساني، سار عندها مذهب السعادة على طريق التفسير اللاهوتي للأخلاق.

دفع المذهب اللاهوتي هذا النظام لا إلى الفردية فحسب، بل حتى إلى التفسير المعاكس (اللذة - المعاناة)، الذي يعتبر أساساً لحفاظ الفرد على ذاته.

يسعى الإنسان إلى السعادة لأنها تحتوي على ضمانات رئيسة لصون الذات، والوجود المستمر للفرد. لهذا لم يكن صدفة اعتبارهم في نظريات مذهب السعادة وتلك النظريات القريبة منها أن مقياس الحفاظ الذاتي على الشخصية هو المقياس الأهم من بين جميع المقاييس.

استخدم هذا المقياس كل من جون لوك وت. هوبس وب. سبينوزا واعتبروا جميعاً هذا المقياس قاعدة للخير والبعادة البشرية. هذه هي الدائرة الرئيسة للأفكار والمقولات، التي عاشت في علم الأخلاق الما قبل ماركسي حول مسائل السعادة، أثناء النضال من أجل الإدراك الصحيح لأخلاق البشر الحية. وعندما نشير اليوم إلى القصور الاستقرائي والنظري وإلى الأخطاء في مذهب السعادة، يجب علينا أن لا ننسى ولو للقيقة واحدة حقيقة هذه النظرية وجوهرها الخاص. ومن وجهة نظر نظرية بحثة يمكن أن نقول أن وجهات نظر مذهب السعادة كانت مؤسسة بعمق على محاولات البرهنة والبحث عن الحقائق الأخلاقية والسلوك الواقعي للإنسان. قيم مذهب السعادة من وجهة النظر الاجتماعية العملية كرافع لشعار "يستحق الإنسان مصيراً سامياً" ورأى الإنسان كوجود على الأرض لا في السماء.

ندع متابعة البحث في بقية أفكار مذهب السعادة عبر التاريخ حتى وقتنا الحاضر (لأن هذا هو موضوع فصل لاحق) ونعود إلى دراسة المفاهيم الرئيسة لنظرية علم أخلاق السعادة، وهذا ضروري جداً نظراً للمكانة والدور الهام، اللذان تحتلهما السعادة في علم الأخلاق الماركسي اللينيني.

الفصل الثاني

المفاهيم الرئيسة لنظرية السعادة

تؤسس نظرية أخلاق مذهب السعادة على الاهتمام المفرط بالمشاعر وبالأحاسيس تقريباً "على سبيل المثال، يشير هيلفيتوس قائلاً: إذا أردت أن توافق بين المصلحتين العامة والخاصة، يكفيك أن تفهم وتحس الأخيرة وأن تستخدم الأحاسيس الإنسانية بكامل قوتها.

لا يمكن أن يدخل إلى حرم الفضيلة ما عدا ذلك الإنسان الذي يتميز بعزيمة قوية. "دوماً وعندما تتطابق المصالح العامة مع المصالح الخاصة، تصدر الفضيلة عن كل فرد انطلاقاً من حب الذات والمصلحة الخاصة"⁽³²⁾. هنا وبحقيقة الأمر تراهن الأخلاق دوماً على الأحاسيس الاجتماعية للفرد، محققة بذلك إحدى أكثر الإمكانيات إثماراً لنظام أفكار مذهب السعادة.

⁽³²⁾ هيلفيتوس. ك.أ.: عن الإنسان، عن مقدراته العقلية وتربيته، موسكو 1938 ص

يعتبر الربط بين الفضيلة والحقيقة العلمية من مناقب مذهب السعادة "لا تزور الفضائل تلك الأمكنة، التي طردت منها الحقيقة" - هذا ما أكدته المفكر السابق نفسه. لهذا يجب أن تكون الفضيلة عملاً واعياً وتأكيداً للعلم لا للدين.

احتلت محاولات إبعاد الفساد والمنفعة الشخصية، كمنايع للأخلاق الفردية، مكاناً هاماً في نظرية مذهب السعادة. ولم تستطع الأبيقورية أن تبقى على مواقفها الأنانية باستمرار. كتب أبيقور قائلاً: "كل ما هو موجود - هو مؤسس على لذة أنانية". غير أنه تابع مضيفاً: "... في حالات أخرى، يجب الموت في سبيل الآخر"⁽³³⁾، عندها نصل إلى ظاهرة تسمى إنكار الذات أو التضحية بالنفس. ونجد مثل هذا التناقض لدى هيلفيتوس أيضاً. إن المصلحة الشخصية - حسب هيلفيتوس - هي النابض الوحيد للأفعال البشرية. لكننا نجد لديه أفكاراً أخرى: "يكون الإنسان محقاً، عندما توجه جميع أعماله إلى الخير العام..."⁽³⁴⁾، وغالباً ما تؤدي المصلحة الخاصة إلى الضلال"، وهذا ما يميز نشاطات الوعاظ بشكل خاص. "... يكون الواعظ مفيداً للوطن، فقط

⁽³³⁾ أفيتسيان. آ: الفلاسفة الأضداد (مقتطفات، نصوص، شهادات) كييف 1955 ص

260.

⁽³⁴⁾ هيلفيتوس. ك. أ.: عن العقل. موسكو، 1938. ص 38.

عندما يمتنع عن البحث عن المصالح الخاصة تماماً، ويبحث عن القوانين العامة للتطور بالعمق⁽³⁵⁾. وبهذا الشكل، يمكننا أن نقول، أنه على الرغم من أن دعاة مذهب السعادة اعتبروا الأناية موقفاً أولياً، إلا أنهم بحثوا عن تبرير لها بأسلوب خالٍ من الطمع. لكن هذا جميعه لا يشير إلى محدودية صلاحية مبدأ مذهب السعادة فقط، بل إلى ضيق المجال، الذي تتوافق فيه المصالح العامة مع المصلحة الخاصة. وليس أقل أهمية أن نشير إلى أن إحدى العلاقات المميزة لمذهب السعادة الحديث هو اقتراب الأخلاق من السياسة فيه. وكانت المائة سنة الأخيرة لفلسفة القرن الثامن عشر الماديين عبارة عن مئة عام لعلم الأخلاق كما للسياسة. (عندما كان يستخدم مفهوم "السياسة"، كانوا يفسرونه كجانب آخر من الأخلاق)، هذا ما قاله مؤرخ تاريخ الفلسفة لوبول⁽³⁶⁾. السياسة - عبارة عن أخلاق اجتماعية، الأخلاق - هي سياسة منزلية.⁽³⁷⁾

(35) - المصدر نفسه.

(36) - لوبول. ي. ك: (1896-1943) فيلسوف سوفيتي، عضو في أكاديمية العلوم السوفيتية منذ عام 1939، عمل في معهد ماركس والمجلد منذ عام 1924. - المرجع: الموسوعة السوفيتية الكبرى، المجلد 15 ص 72 - المترجم.

(37) مابلي جيراليل (Mably) (1709-1785) - سياسي ومفكر ومؤرخ فرنسي - المرجع: الموسوعة السوفيتية الكبرى، المجلد 15 ص 138 - المترجم.

كما قال ما يلي:⁽³⁸⁾

تميز مذهب السعادة في القرن الثامن عشر، بشكل عام، بأنه كان في الوقت الذي يقر فيه بوجهة النظر الفردية (وجهة نظر الشخصية البرجوازية كالتجار والصيارفة)، أقر بوجهة نظر "الطبيعة الإنسانية الخالدة" (ويعتبر الأخيرة تعبيراً عن مصالح الأمة البرجوازية المشكلة).

⁽³⁸⁾ لوپول.ي.ك. ديترو: موسكو 1960 ص20.

اللذة، السعادة

يُعتبر دعاة مذهب السعادة، أن السعادة هي منطلق ومبتغى المساعي الإنسانية وهي ذلك الهدف، الذي يسعى إليه الجميع. كتب فيورباخ حول ذلك قائلاً: "مبدأ الأخلاق - هو السعادة..."⁽³⁹⁾. وأشار هيلفيتوس قبل قرن إلى ما يشبه ذلك قائلاً: "إن أمنية السعادة هي خاصية مميزة لجميع الناس، وهي أقوى من جميع المشاعر عندهم..."⁽⁴⁰⁾. لهذا تعتبر المشاعر مرتكز الأخلاق. "هنالك حيث يوجد مشاعر، لا توجد مثالب وفاقة ولا يوجد جوع وعطش، وبشكل آخر يمكن القول أنه هنالك حيث لا توجد التعاسة، لن نجد الحقد أو المقاومة أو المواجهة... ولن نجد أخيراً الإدارة"⁽⁴¹⁾. المشاعر - هي الرابطة، التي تقونن العلاقة

⁽³⁹⁾ فيورباخ. ل: أعمال مختارة. المجلد الأول. صوفيا 1958 ص 48.

⁽⁴⁰⁾ - هيلفيتوس. ك. ا: أعمال مختارة. المجلد الأول 1938. ص 163.

⁽⁴¹⁾ فيورباخ. ل: أعمال مختارة. المجلد الأول. ص 547.

(إنسان- طبيعة) و (إنسان- إنسان) وبواسطة هذه النظرية
تكتشف الأخلاق مادتها الناتجة عن التأثيرات غير المباشرة
لأحاسيس الناس، معترفة في الوقت نفسه وعند الضرورة بسلبية
الأهداف البشرية أو بشكل أدق بمخموليتها، لأن الأهداف تتعلق
بالأحاسيس والمشاعر، وتعتبر المظهر الخارجي لها. بهذا الشكل،
يؤدي إدراك مقولة السعادة إلى فتح الطريق أمام إدراك نشاط
الإنسان، لكن هذا النشاط هو نشاط تأملي فقط. تأملي، لأن
الإنسان السعيد هو ذاك الإنسان الذي يتذوق السعادة- وهو
إنسان غامل ذي أفق ضيق. ويمكن الإجابة اليوم بسهولة عن
السؤال المتعلق بالمعنى الأخلاقي لتصور مذهب السعادة في ظروف
الثورة العلمية التقنية، إذا تصورنا الإنسان كنوع من الآلات ذات
المشاعر الطيبة- نجح هذا المحور مراراً ليكون موضوعاً في الآداب
العلمية الخيالية وفي اليوتوبيا ونقيضها.

هذه سعادته- تابع بسيط "أو حتى المشتق الأول" لانتاج
بضائع الاستهلاك.

عند هذا يمكن الحديث عن السعادة الستاتيكية (الساكنة)
للناس، كما اقترح الجوزويي الفرنسي الاب ديوبارل في مجادلته

حول الدور الاجتماعي للسوبرنيطيقا⁽⁴²⁾. إن الإدراك وبأي معنى أخذ، ما هو إلا أزمة في التطور الأخلاقي للشخصية، وليس مثلاً أعلى. هذا ما نكتشفه في قضية مذهب السعادة، السعادة — هي اللذة. ومع ذلك نطرح السؤال الآتي: ما هي السعادة حسب وجهة نظر دعاة مبدئها؟ هل نبسط اليوم تصوراتهم لتسهيل الفهم أم نشكر الله من أجل التبجيل ليوثنا الحاضر، ما دما نعيش فيه؟ أجاب على هذا السؤال هولباخ على الشكل التالي: "إنها عبارة عن متع دائمة أو متتابعة تجر إحداها الأخرى، أو هي عبارة عن مشاعر طيبة، فيها يحب الإنسان الخير ويقدره لذاته"⁽⁴³⁾.

كبت ستيوارت ميل قائلاً: "نفهم تحت معنى السعادة، اللذة وغياب المعاناة، أما معنى التعاسة فهو المعاناة وغياب اللذة"⁽⁴⁴⁾.

يعتبر مذهب السعادة، السعادة كوضع نفسي بسيط، مرتبط مع استمرار اللذة. اللذة — هي شعور لذيذ يسبب تلبية الحاجات

⁽⁴²⁾ السوبرنيطيقا: من الكلمة الإغريقية Kybemetike (فن التحكم) هو علم عن التحكم، الاتصالات ومعالجة المعلومات. تعتبر الأنظمة السوبرنيطيقية هي أهداف بحوث هذا العلم التحريدي. وتسمح درجة تجريدية أبحاثه العالية بإيجاد مداحل عامة لدراسة الأنظمة ذات الطبائع المختلفة، بيولوجية، تقنية، طيبة.. الخ. المرجع — الموسوعة السوفيتية الكبرى — المجلد 12. ص 75 — المترجم.

⁽⁴³⁾ هولباخ. ب. أ: أعمال مختارة في جزئين. الجزء الأول. موسكو ص 14.

⁽⁴⁴⁾ ميل. جون ستيوارت. العسكريةتاريا، 1990 ص 99.

جسدية، لكنها على التوازي، تغذي العقل أيضاً. أما دعاة مذهب السعادة الأوائل ودعاة مذهب المنفعة فحولوا اللذة بشكل كامل إلى الطبيعة الفيزيائية والفيزيولوجية وإلى مذهب طبيعي فجع، وحسب رأيهم، لا يجب أن تقف أية عقبات أمام طريق الإنسان وهو يسعى لنيل اللذة.

تحتوي السعادة، بدون أدنى شك، على صفات فيزيولوجية وسيكولوجية. يرافق الصحة الجيدة نشاط حيوي رفيع وإحساس ذاتي مريح، وغالباً ما يرافق الإحساس الذاتي المريح مشاعر سيكولوجية من الارتياح، غير أن هذا جميعه لا يكشف مطلقاً القيمة الأخلاقية للسعادة والإحساس الداخلي المريح، لأنه يعتبر من القيمة عكاس، لما لتلك الجهود الكبيرة المرتبطة بالتحقيق الناجح الهدف، الذي يعتبر هاماً ليس لنا فقط، وتظهر هنا قيمة ذلك بروح موضوعية بحثية، أي أن جميع تلك السمات، المنوه عنها من قبل مذهب السعادة، للقيم وللذة تحتل مكاناً، لكن طبيعة القيم والخير لا تؤول مطلقاً إلى توابع نفسية أو فيزيولوجية. وفيما عدا ذلك، يكون من السهل جداً توجيه الإنسان أو التحكم به بواسطة آلية بسيطة (ميكانيزم). العتلة الإنسانية- اللذة، راهن عليها وأحصل على النتائج التي ترغب. إلى جانب ذلك، يقدم لنا تاريخ علم الأخلاق براهيناً كثيرة، ليست مطلقاً لصالح القضية

الأم لمذهب السعادة. ولتذكر هنا بالقاعدة التي كانت متشرة حتى في القرن السادس عشر قبل الميلاد: لاتفعل لغيرك ما تكرهه لنفسك. إنها قاعدة أخلاقية ذهبية. أما قاعدة مذهب السعادة الذهبية فهي: كن سعيداً، إملأ حياتك باللذات والمتع! ارتباطاً مع هذه القاعدة، تكون اختبارات مذهب السعادة ذات المعنى الأخلاقي الاجتماعي مبررة. كتب الكاتب الروسي الساخر سالتيك شيدريرين عن مثل هذه الاختبارات في حكايته الخرافية "الليبرالي" قائلاً أنت تريد السعادة (الحرية، الخير) - إذا وافقت على الحصول عليها قدر الإمكان، بعدها يرغمونك على الحصول عليها حسب المعادلة (كيفما اتفق) ويصبح ليس من المستبعد أن تحصل في النهاية عليها تحت شعار "الموافقة على الدناءة". ويمكن الظن هنا أن صاحب مذهب السعادة بعيداً عن المثاليات النظرية (تستخدم هذه الطريقة في العلم الحديث بشكل واسع، إلا أن علم الأخلاق تجاوز التقييدات الطبيعية العلمية كثيراً). لذلك كان من غير المنصف وغير العادل أن يلاحظ وليس نادراً في القديم وحتى حاضراً نقداً لنظرية مذهب السعادة، معتمداً على المزايا الشخصية لمؤلفيها والمناصرين لها. ونشير هنا ثانية إلى محدودية الفحوى الأخلاقي لمذهب السعادة، نتيجة لأسباب كثيرة، إحداها هو تخيل الظواهر الشاذة للسعادة واللذة في مجال استخدام المقاييس المناسبة،

وذلك لأن دعاة مذهب السعادة يتميزون بصفات أخلاقية
وضيعة.

نعود ثانية للسؤال عن المعنى الأخلاقي المقياسي للسعادة —
اللذة بالارتباط مع "القاعدة الذهبية" للأخلاق⁽⁴⁵⁾.

يُعرض علينا الأمر على الشكل التالي: إن القاعدة الذهبية،
التي تنتج عن الإدراك والاعتراف بتساوي الناس في بحرى العالم
الواقعي، تؤكد بنفس المعنى على نوعية التفكير الأخلاقي الأولي
عن العالم، الذي يمكن أن يكون محكاً (مطلقاً ليس وحيداً) لأنظمة
علم الأخلاق القديمة. ٢. وبأضعف الإيمان، إذا أخذنا بعين الاعتبار
ما اقترحه المؤلفون القدماء فيما يتعلق بالأخلاق والتفكير كقاعدة
أخلاقية (وكما تشير البحوث، التي أكدت على إستقلالية مختلف
مصادر الثقافة الإنسانية القديمة)، يمكننا أن نجيب على السؤال
الأول المتعلق بالمادة قيد البحث: هل ينتمي هذا إلى الأخلاق،
المتفق مع وجهات النظر التقليدية حولها؟ أما في الحقيقة فيمكن أن
ينتج عن مثل هذه المقاومات اثر عكسي. عندها يجب أن نختبر
القاعدة الذهبية حسب تطابقها مع تصوراتها الجديدة عن
الأخلاق. إلا أنه وبهذا الخصوص، قدم العلم للأخلاق براهيناً

(45) — لمزيد من التفصيل، عد إلى كتاب، موسينوف I.A. القاعدة الذهبية للأخلاق.

موسكو، 1979.

ليست ضعيفة. وعلى الرغم من المعرفة المحدودة، التي قدمها العلم عن الظواهر الأخلاقية، ألا أنه كان يقدمها دقيقة ومبرهنة، إذا قارناها بالتصورات الاعتباطية (الاعتبارية). وفي الحقيقة، يعتبر البحث في أساس للأخلاق، مسألة مهما اعترضها من عقبات، ذات أفضلية للدراك بالمقارنة مع محاولات تشكيل قاعدة واحدة لسلوك جميع الناس في ظروف وأوضاع مختلفة. وتسطيع هنا الحقيقة التالية: أمر كانط⁽⁴⁶⁾ القطعي، الذي اتهموه بالشكلائية،

(46) - كانط، عمانوئيل (1724-1804) - رائد الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ومؤسس المثالية "النقدية" أو المثالية. كانت نظريته إلى الأخلاق نظرة مثالية، ولكنه فعل الكثير لكشف خصوصية الأخلاق وتحديد موضوع الأطياف والسيكولوجيا. يعرف كانط الأخلاق، عامة، بأنها مجال الحرية البشرية، المتميز عن ميدان الضرورة الخارجية والسببية الطبيعية. هنا لا يخرج كانط عن ميدان النظرة التقليدية للأطياف المثالية، ويفهم الأخلاق فهماً فضفاضاً للعامة. والأخلاق، عند كانط، هي مجال اللارم (ما يجب أن يكون) ذي الطابع الكلي في الأخلاق (الأمر القطعي).

هذا التعريف صحيح من حيث المبدأ، لكنه لا يركز في فلسفة كانط، على فهم الطبيعة الاجتماعية للأخلاق، لذا فإنه لا يبين خصوصية الغلبة في الأخلاق. ويؤدي إلى المعارضة بين اللازم والضرورة الاجتماعية - التاريخية. ومن هنا جاءت نظرية كانط الريية إلى القسوى المحركة للتقدم التاريخي (فالتس تحركهم، على الأغلب، الدوافع للأخلاقية)، وقوله بأن المثال الأخلاقي لا يتحقق إلا في العالم الآخر. وعلى النقيض من الرأي الشائع، القائل أن الخير يتقدم منطقياً على مفهوم اللازم ويحدده، ذهب كانط إلى أن الواجب هو المفهوم المركزي في الأطياف، وهو الذي يحدد مفهوم الخير (والخير >

مفسرينه كقاعدة أخلاقية على الرغم من عدم استخدامهم لها. حيث في النصف الثاني من القرن العشرين فقط، ظهرت انتقادات مؤسسة ضد نظرية علم الأخلاق في المذهب الشكلائي (نأخذ هنا بعين الاعتبار علم الأخلاق الحديث)، الذي مع جميع أخطائه الاستقرائية والحسائية لا يمكن إهماله من تاريخ علم الأخلاق الحديث (فعلى سبيل المثال، تشكلت في حضنه التصورات عن الأشكال الجديدة لأبحاث علم الأخلاق: اللغة الأخلاقية، الأحكام الأخلاقية، العلاقة بين العناصر الاستقرائية التجريبية في نظرية علم

كهو فعل الواجب). وعلى هذا النحو ترتب على الإنسان، عند كانط، بأن يؤدي واجبه من أجل الواجب نفسه. وكان هذا تجلياً للنزعة الربورية والشكلائية في الأخلاق. كما وتوضح الجوانب المثالية في أطيقا كانط في قوله بأسبقية (apriorism) الوعي الأخلاقي، وتسليمه ببقاء النفس ووجود الله كضمانة للحزاء العادل لنشاط النفس الأخلاقي في الحياة الدنيا. وقد مارست أطيقا كانط تأثيراً كبيراً في الفلسفة الأخلاقية البرجوازية المعاصرة، ولا سيما الوجودية والحدسية. أما الأطيقا الماركسية، التي تعطي لانجازات كانط النظرية في معالجة الكثير من المشاكل الأخلاقية حقها من التقدير فترفض في الوقت ذاته، للموضوعات المثالية والشكلائية والصورية في منهجه، وخاصة منها الأفكار، التي شكلت لاحقاً، الأرضية الفكرية للنزعة الإصلاحية والانتهازية في الحركة العمالية (الاشتراكية الأخلاقية). أما مؤلفاته الأخلاقية الأساسية فهي: "أسس ميتافيزيقا الأخلاق - 1785". و"نقد العقل العلمي - 1788" و"الدين في إطار العقل 1793" وميتافيزيقا الأخلاق - 1797" - المترجم. (معجم علم الأخلاق - دار التقدم - موسكو ص 313 - 314).

الأخلاق). وحتى لو كان علم الأخلاق قد تشكّل في ظروف اجتماعية أديولوجية غير مناسبة للحصول على المعرفة العلمية، مثلما عليه الحال في علم الأخلاق البرجوازي المعاصر، الواقع في أزمة استقرائية عميقة، فإنه يقدم قاعدة أكثر تماسكاً للحصول على معارف دقيقة عن الأخلاق، مما هو عليه الحال عند التصورات الاعتيادية (بما فيها نشاط الوعي الأخلاقي نفسه).

لهذا فإن نقد وجهات نظر مذهب السعادة- الذي نحاوله اليوم- هو نقد علمي، أي إنه نقد يمتلك توجهات مؤسسة لاسلبية فارغة. وأصبح من الهام تفهم، ليس فقط، ما قدمه دعاة مبدأ السعادة بكيفية إدراكهم لهذا المقياس أو ذاك، بل مقدار تطابق هذه التأكيدات مع الحقيقة الاجتماعية لتلك المرحلة، وأيضاً من الأهمية بمكان معرفة المرحلة التي قاموا فيها بتحريف الحقيقة الموضوعية، أي المؤشرات الأخلاقية كظاهرة اجتماعية.

نصل أخيراً إلى تفسير دعاة مذهب السعادة للمقاييس الأخرى المرتبطة بـ "السعادة" و"اللذة". تلك المقاييس التي استخدمها حكماء الإغريق القدماء، أولها- مقاييس الفضيلة، لأنهم وليس دون أساس، يسمون كامل علم الأخلاق القديم بنظرية الفضيلة أحياناً.

إن السؤال عن الفضيلة عند الأبيقوريين ولا سيما من
لحقهم، وعند دعاة مذهب السعادة بشكل عام - هو سؤال عن
التسوية الذاتية لنظريتهم أمام المجتمع. وفي الوقت نفسه ومن
منطلق نظري بحت، يعتبر ذلك السؤال المستفسر عن المدى الذي
تكون فيه الأخلاق بالنسبة لهم هدفاً معلناً أسمى - تصبح السعادة
أخلاقية ليس بما أنها تنتمي إلى الأخلاق (أو إلى خارج محيط
الأخلاق)، بل بقدر ما تكون عبارة عن أخلاق إيجابية. أكون
خيراً (فاضلاً) - هذا يعني أن أكون أخلاقياً - هذه ليست قناعة
إنسان الصكوك القديمة فحسب، بل هي قناعة كامل التاريخ
الأوروبي (على أقل تقدير)، وعلى ضوء هذه القناعة، يجب
الموافقة على مبدأ السعادة والقول أن الإنسان السعيد - هو إنسان
خير (فاضل). وتعتبر متابعة حجج المؤلفين القدماء مسألة أكثر
فائدة من ملاحقة حجج أمثالهم، التي ظهرت في وقت متأخر،
حيث فقد، أثناء مجرى الجدل العنيف، الذي دار بين المثالية والمادية
في علم الأخلاق، الكثير منها، أو تم تحريفها. ويجدر هنا أن نعيد
إلى الأذهان حجة "كانط"، التي أبرزها ضد مذهب السعادة، التي
يمكن إهمالها إذا عدنا إلى النظرية الماضية، طبعاً، إذا كان هذا
يوافق منطق الأمور.

كتب كانط في مؤلفه "أسس الأخلاق الميتافيزيقية" مُدافعاً عن قضية استقلالية الإدارة كمصدر للأخلاق قائلاً: "لا يمكن استخدام مبدأ السعادة الشخصية، لا لأنه باطل أو لأن خبرته تناقض الإثبات- كما لو أن الحالة الحسنة دائماً ما تدرك بالتوفيق مع السلوك الحسن- ولا لأنه غير مؤثر بتاتاً في تكون الأخلاق، إذ ليس هنالك أمر أو شيء محدد وثابت يجعل الإنسان سعيداً أو جيداً أو يجعل الإنسان الجيد ذكياً واعياً لما يريد أو حتى يجعله فاضلاً، بل لأن هذا المبدأ خاطئ لما يضعه من بواعث تحت الأخلاق، سرعان ما تقوم بقطع أو تدمير كامل طبيعته السامية، خالطاً في الوقت نفسه بين رغبة الإنسان للفضيلة ورغبته للرديلة وملقناً أمر واحد فقط وهو كيف من الأفضل تقدير الفروقات المميزة لإحدهما واستبعاد الآخر نهائياً"^(٩٧).

بماذا كان كانط محقاً وأين انحصرت تحذيراته أو توجهاته الأديولوجية المعاكسة في فهم الأخلاق؟ يؤكد كانط على بطلان مبدأ السعادة، وأن الحالة الحسنة لا تعبر عن نفسها دائماً بسلوك حسن.

(٩٧) - كانط.ي: المؤلفات في 6 مجلدات، المجلد الرابع، الجزء الأول. موسكو 1962، ص 285-286.

وفيما يتعلق "بالباطل" يمكن أن نقول "إن كانظ محق، حين يقول أنه لا يجوز بناء نظام علم الأخلاق على ذلك الأساس، الذي يعتمد فيه على قيمة أخلاقية محددة. لا يجوز ذلك، لأن الكون وحياة الناس تعجان بقيم كثيرة متماثلة ومتناقضة في الوقت نفسه. إلى جانب ذلك، إن أهمية هذه القيمة أو تلك، تختلف من زمان إلى آخر في تاريخ حياة البشرية. وعلم الأخلاق، الذي يعول على العلمية، ليس له الحق بإعطاء لوحة دوغماية لقيم العالم الأخلاقية. وهنا تكون خيرة تاريخ علم الأخلاق مقنعة يقيناً. ويصبح كانظ محقاً تماماً، إذا فهمنا "بطلان مبدأ السعادة الشخصية" ضمن أطر اختبار كميبدأ أخلاقي. وبسبب ملاحظة دعاة مذهب السعادة لهذه الحقيقة، حولوا هذا المبدأ إلى نظرية- قوة هذه النظرية لا ضعفها. أما فيما يتعلق بالعتاب التقليدي المعكوس- ليس "دائماً" ما يرافق الحالة الجيدة سلوك حسن، لذا لا يمكن اتخاذ القاعدة المذكورة أعلاه كحقيقة ليس لأن علم الأخلاق لا يستطيع إيجاد القاعدة والقيمة المطلقتين للسلوك البشري، اللتان يمكن أن تقدما له على الدوام ضماناً أخلاقياً لهذا السلوك، بل لأن الأمر يتعلق بعدم وجود هذه القيمة المطلقة أو تلك القاعدة المحددة أبداً. ومرة أخرى، يظهر علم الأخلاق، كذلك العلم، الذي إختير احتمالات كثيرة في هذا المجال وتأتي

الحقيقة الأخلاقية، وتاريخ الأخلاق ليساعدانه في ذلك، كما أنه لا وجود لمثل هذا الحافز وذاك الباعث المؤسسين لسلوك الإنسان، اللذان يمكن أن يولدا سلوكاً خاضعاً لموشر أخلاقي إيجابي. وهنا من السهولة أن نبرهن على أن كانط كان قد أُسر من قبل التصورات المطلقة وإلى حد ما الوهمية عن الأخلاق. واهتم اهتماماً مطلقاً لا بالحاجة، بل بالتقييم في الأخلاق، معطياً له موقعاً جيداً دائماً غير متعلق بالتقييم ذاته.

وتبرز لدى كانط حجة أخرى يُظهر فيها خلافاً مبدأياً بين مذهبي المنفعة والسعادة في إدراك الأخلاق وتفسير الأهداف الأخلاقية⁽⁴⁸⁾. ويرى كانط الأخلاق كمجال سام مترفعاً عن حياة الإنسان الحقيقية، حيث الأمر الأهم - هو الفصل الدقيق بين الخير والشر، الفضيلة عن الرذيلة وتحقيق الخير ليصبح حربة اختبار للإنسان الغبي.

وهنا نتساءل، ما الذي تخيله الإنسان عند ذلك، وما هو الأمر الأقل أهمية بالنسبة له في تاريخ مذهب المنفعة، وهل من الأهمية له بمكان بقاء أخلاق اللزوم؟

(48) - بحثنا هذا الموضوع بتفصيل أكثر في كتابنا: أسس مسائل المذهب الأخلاقي - صوفيا، 1975. انظر أيضاً مقالة وردت في "دليل جامعة موسكو الحكومية" 1977، العدد 4.

من الطبيعي، في حالة صراع الأخلاق مع الإنسان، أن يأخذ مذهب المنفعة جانب الأخلاق. أما عند مذهب السعادة فيكون الإنسان ألحن من الأخلاق، حتى لو كانت السعادة نقطة ضعف الإنسان وهوى طبيعته.

أما بخصوص العتاب المعاكس، الذي يقول أن مذهب السعادة يعود إلى الجندوى (الفائدة) (لا ينطق كائناً بذلك، إلا أنك تشتم رائحة العتاب عنده)، ويفسد الوعي الأخلاقي للإنسان ويرمي الطعم ولا يلزم الإنسان بالأخلاق، فيمكننا القول أن فيه بالذات تنحصر بذرة النقد العلمي الحقيقي. وفي الحقيقة، يمكن القول أن هذا النقد يتميز بعنوانه الخاص ويتقيد بمذهب المنفعة لا بمذهب السعادة الكلاسيكي.

وإذا عدنا إلى دعاة مذهب السعادة أنفسهم وإلى تفسيراتهم للفضيلة، نجد أن للأخيرة أهميتين رئيسيتين اثنتين هما:

1 - إن الفضيلة هي أداة ضابطة للذات كبيرة القدرة. وهذا يعني أن الفاضل لا يمكن أن يكونه كل إنسان متنعم بخيرات الحياة، بل ذاك فقط، الذي يقاد في مثل هذه الحالات بواسطة قواعد لا تترك المجال لمختلف اللذات أن تناقض إحداها الأخرى أو أن تجلب المعاناة. هو - ذلك الإنسان، الذي يُقاد بمقياس، الإنسان الذي يقتنع بحجج العقل ويأخذ بعين الاعتبار، دائماً،

الأوضاع المستجدة ويتميز بأفق مستقبلي واسع ويدرك أن السعادة الحقيقية هي في ممارسة حياة متعلقة ومصحوبة بلذات معتدلة. كتب أبيقور قائلاً: "الإنسان كائن ليس سعيداً، إما بتأثير الخوف أو الشهوة السخيفة. وإذا تم القضاء عليهما، يستطيع الإنسان عندها أن يمتلك القدرة على وعي السعادة"⁽⁴⁹⁾.

2- الفاضلون، هم أولئك الناس، الذين يقرنون المصالح الخاصة بالمصالح العامة والخير العام، اهتم كل من هيلفيتوس وهولباخ، بحوية، بالعلاقات بين الشخصية المفردة والمجتمع، ولأنهما كانا على قناعة بطبيعة الإنسان الأنانية، أكدا على وجوب "الإدراك الصحيح لمفهوم المصلحة الخاصة"، التي لا تتعارض مع مصالح المجتمع. وبشكل عام نستطيع أن نعرف أنهما كانا على حق - لم تكن ولا يمكن أن تكون هنالك نظرية اجتماعية، تبني تصوراتها حول موضوعاتها دون أخذ أمانتي الإنسان بعين الاعتبار. ولا يعتبر المجتمع مجتمعاً، إذا كان مفتقراً إلى المصالح الخاصة والمصالح العامة. وحسب رأي الماسادين الفرنسيين في القرن الثامن عشر، تُكوّن الفضيلة، في الوقت نفسه، مبدأً للتعايش الإنساني المشترك، وتحيا في قساعة التشريعات

(49) - أفيتسيان.ل: الفلاسفة الأضداد (مقتطفات، نصوص، شهادات). ص 274.

الاجتماعية. وكمنشدي السعادة الشخصية، يجب علينا إدراك رغبات الناس الآخرين، الذين لهم الحق نفسه. وكمعولين على الأعمال الخيرة من طرف الآخرين، يصبح من واجبنا أن نعمل لتحقيق الخير العام. أما نشاط الإنسان في المجتمع فأصبح يوصف بمبدأ بسيط: يبحث الإنسان عن السعادة لنفسه، لكن السعادة لا تتحقق لكل فرد في جو اجتماعي إلا بجهود مشتركة. وانطلاقاً من ذلك، نستطيع إدراك الاهتمام الكبير، الذي أبداه دعاة مذهب السعادة الفرنسيون لعلاقة مقاييس "الفضيلة" بمقاييس "العقل".

يفسر سبب الاهتمام بالعقل "الرشاد" بالحالة العامة للمشروع الموجه لفهم ظواهر الأخلاق الاعتيادية (يعتبر هذا المشروع، إذا سهلنا الأمر، نظرية للعقل السليم، لانظرية تجريدية خلقت للأرشيف). لكن بالإضافة إلى ذلك، يعتبر الرشاد — إحدى سمات الإنسان الأخلاقية السيكلوجية، التي تظهر الفضيلة فيها بجملاء (يجب أن لا ننسى أنها كاعتدال للرغبات والسلوك، التي تعطي شعوراً بالسعادة). إلا أنه من الواضح أن الرئيس بالنسبة لدعاة مذهب السعادة — هو ربط الفضيلة بالسعادة، لا بأمور أخرى. قد يكون الإنسان سعيداً، وهذا لا يناقض بشيء إذا كان

في الوقت نفسه فاضلاً. "وحسب فيورباخ، الفضيلة- هي السعادة الشخصية، التي يمكن تحسبها مع سعادة الآخر فقط...."

وتجانب الناس (نقارن علاقة دعاة مبدأ المنفعة بالإنسان)- لا يحتل مكانه من أجل احترام القانون، بل من أجل احترام الإنسان الآخر⁽⁵⁰⁾.

إن عدم امتلاك مذهب السعادة إمكانية الخروج إلى المجال التاريخي، الذي تتغير فيه العلاقات الاجتماعية، أثناء بحثه عن التظيمات الأخلاقية لبرنامج النظرية، أوقعه في وضع لا يحسد عليه. وكان مضطراً حين أعلن أن الإنسان أناني بطبيعته، أن يسير في طريق البرهان المركز لفرضياته الأولية ومبادئه بنفس القدر، الذي مكث فيه على طريق تليين أطروحاته عن أنانية الإنسان. ومن وجهة النظر هذه، يمكن وبثقة الإقرار، أن مذهب السعادة لم يستطع إثبات فضيلة السعادة بالمعنى الكامل. واستتبع هذا بروز ظواهر أخلاقية لذاتها، أما ما ينتمي إلى الفضيلة فهي تلك الحقائق من سلوك البشر، التي تمتلك معنى مختلفاً تماماً، وإذا انتقلنا إلى التعميم، يمكن القول أن مذهب السعادة وقف بشكل صارم في صف الإنسان مكتشفاً نقطة ضعف وحيدة: إذ يقوم على إذابة خواص الأخلاق في سيكولوجيا البشر. أما مذهب المنفعة فعلى

(50) - فيورباخ. ل: أعمال مختارة. المجلد الأول ص 654.

العكس من ذلك، إذا يقدم على الإظهار الدقيق والمركز لخصائص الأخلاق، خارجاً بكلية قد تكون تامة عن حدود سيكولوجيا البشر وحتى خارج حدود مجالات نشاطاتهم.

لكن ما هي الفضيلة كمقولة بشكل عام؟

أشارت ف. تيودوروف إلى مؤشرات هامة حول هذه المقولة "في فهم الفضيلة" وذلك في بحثها "وجهات نظر تاريخية نظرية حول مقولة الفضيلة" قائلة: في مفهوم الفضيلة، يعبر عن الميزة المعممة للمصفات الأخلاقية لشخصية مفردة أو لعينة اجتماعية صغيرة.

الفضيلة - هي قاعدة أخلاقية محققة ووجهة نظر للعلاقات الأخلاقية الموجودة في المجتمع... لهذا يجب فهمها كنتيجة مميزة للعلاقات الديالكتيكية بين المتطلبات الأخلاقية (المبادئ)، القواعد (التقديرات) لعينة اجتماعية محددة ونوع محقق لسلوك الشخصية (مجموعة، صف، ...). ولا يجوز مماثلة الفضيلة مع رذيلة معينة، بسبب ظهور إحدى السمات الأخلاقية فيها، بل يجب مقارنة الفضيلة مع مجمل سلوك الشخصية الأخلاقي، لأنها عبارة عن الميزة الواقعية لهذا السلوك، ومن هنا يكون السلوك الفضيل عبارة عن فضيلة واعية ثابتة ومحققة، أي بمعنى آخر، عبارة عن واجب واعٍ لزومي ومحقق.

”من الهام والجوهري، أثناء البحث في نظرية الفضيلة، أن نغير اهتماماً خاصاً متميزاً لعلاقة الخير - الفضيلة، التي تتصف بعدة سمات، تكشف جوهر مقولة الفضيلة وطبيعتها التكاملية. ويجب في المقام الأول، وضع تفسير للفضيلة كخير جزئي خاص - يدور الحديث هنا عن الفكرة العامة للخير، التي تختص بالتصورات عن أشكال للفضيلة محددة، على سبيل المثال، الجرأة، والتقاء والروح السامية وغيرها، وفي المقام الثاني، تقديم تفسير للفضيلة على أنها ممكنة التحقيق عملياً، وأنها مفهوم جزئي مجسد للخير. وفي المقام الثالث - اعتبار الفضيلة إحساناً (عمل خير) خاصاً.. وفي المقام الرابع - يمكن أن تأخذ الفضيلة دور المحرق المميز للعلاقات الديالكتيكية بين المتطلبات الأخلاقية العامة (الطبقية، التشرائية) والسلوك الاجتماعي المميز للشخصية ووحدة وعيها وسلوكها الأخلاقيين. ويمكن أن نجد في الخطة التقديرية الموضوعية، الإمكانية لتقديم هذه العملية المتعددة الدرجات ك: الخير - الفضيلة (أشكال الفضيلة) - الإحسان - الأخلاق⁽⁵¹⁾.

نتابع هنا وجهة النظر الماركسية الحديثة حول تفسير مذهب السعادة للفضيلة. وجه دعاء مذهب المنفعة والأيقوريون اهتمامهم، قبل كل شيء إلى المقياس الطبيعي الحقيقي لتمييز الخير

(51) - تيودوروف. ف: النجاحات التاريخية والنظرية لمقولة الفضيلة (ملاحظات على الأطروحة) صوفيا 1977 ص 13-15. أما في الأدبيات السوفيتية فتجد حول هذا الموضوع في كتاب: بلومكين ف. أ: الخصائص الأخلاقية للشخصية. فورانج 1974.

عن أحاسيس الإمتاع. ويتج عن ذلك، أن كلاً من أبيقور وأرسطو وغيرهم من دعاة مذهب السعادة، رأوا (لن تقدم على طرح سؤال غير ذي معنى "لماذا رأوا أكثر وأفضل؟" لأن مثل هذا السؤال سخيف لعدم تاريخيته) ثلاثة أشكال للفضيلة فقط، وهي التي ذكرتها ف. تيودوروف. وفسرت هذه الأشكال كواحدة، هي البحث عن السعادة، تلك السعادة غير المشروطة والمطلقة. أكد أرسطيوس⁽³²⁾ الذي يعتبر زعيماً للمدرسة القورينائية في علم الأخلاق القديم، على أن الشعور هو محك لسلوك الناس وهو

(32) أرسطيوس القوارني (حوالي 435- حوالي 355 قبل الميلاد) - فيلسوف مثالي يوناني، أديولوجي الأرستقراطية العبودية، مفسر مذهب الفلة (الهيدونية) في الأخلاق. تلميذ سقراط. أسس أرسطيوس في قورينا (شمال أفريقيا) مدرسة فلسفية، عرفت بالمدرسة القورينائية أو الهيدونية. وقد عني يبحث مشكلة رسالة الإنسان وتحصيل الخير الأسعي. وهو يذهب إلى أن المصدر الوحيد للمعرفة هو الأحاسيس، التي يمكن ردها إلى الإحساس باللفة والإحساس بالألم. وهذان الإحساسان عندهما معيار الخير والشر، الحق والباطل، فالكائنات الحية كلها تنزع إلى الأول وتتوقى الثاني. وقد انطلق أرسطيوس من موضوع سقراط حول الخير كوحدة للفضيلة والسعادة، ليؤكد على الأخيرة بصورة خاصة. فهو يعرف السعادة بأنها لفة مديقة، هي، عنده، معيار الخير وهدف الحياة. لكن على الإنسان ألا يكون مبدأاً للملذات، فالملذات يجب أن تكون موزونة ومعقولة، وأن تتضمن عنصراً روحياً.

ضاعت مؤلفات أرسطيوس كلها، ولم يعلنا شيء منها. ☪

بالذات، الذي يقدم لنا الإجابة عن السؤال المستفسر عن ماهية المتع وماهية غير المتع. يؤدي هذا الوضع إلى جانب غيره من الأوضاع إلى نتيجة مفادها أن كلاً من علم الأخلاق وعلم المعرفة يتبادلان الأماكن. وهذا ما أشار إليه لينين في "الدفاتر الفلسفية". تقوم المدرسة القورينائية (الهيدونية)، كما قال، بخلط "الشعور كمبدأً لنظرية المعرفة مع الشعور كمبدأً لعلم الأخلاق"⁽⁵³⁾.

تخلص أبيقور من سلبيات عدة، مُيزت فيها نظرية مذهب السعادة عن القورينائية. ومخالفًا لمذهب المنفعة عند القورينائيين، الذين اعتبروا أن جميع اللذات متساوية القيمة، اتجهت أخلاق أبيقور إلى المتع العقلية، وأقر أن فيها بالذات وجدت الفضيلة قاعدتها، لكن الشيء الرئيس هو: رفعها لمذهب أرسطيوس النسي، إلى جانب اختلاف أبيقور عن أرسطيوس باعترافه بمتعة السكون، لا الحركة فحسب، ومتعة الروح والجسد، وأكد أن الطريق إلى المتعة يتوسطه العقل ولا يكون مباشراً، تلك المباشراتية، التي كان قد أشار إليها أرسطيوس. "إن سعادتنا وتعاستنا همسا ثمار أعمالنا وما يستتبعهما من حكمة أو غباء"⁽⁵⁴⁾ ويضيف أبيقور قائلاً: "إن

المرجع - معجم علم الأخلاق باللغة العربية - دار التقدم - موسكو ص 44 - 45 - للرحم.

(53) - لينين. ف.أ.: الأعمال الكاملة، المجلد 29، ص 251.

(54) - تعليق على كتاب: أفينسيان.أ.: الفلاسفة الأضداد. ص 260.

التعيس، الذي يقوده العقل، أفضل بكثير من السعيد، الذي يحصل على السعادة بفضل الصدق أو بدون استخدام العقل⁽⁵⁵⁾. يعتبر هذا الموقف أكثر تأسيساً من موقف أرسطو، الذي يذكرنا، إلى درجة كبيرة، بتفكير وسلوك جزء كبير من شعبية المجتمع البرجوازي المعاصر. يقول أرسطو: "يقدم الحكيم، بدون أدنى شك، على تخطيم هيكल العبادة وعلى السرقة وعلى تخطيم الثقة الزوجية وغير ذلك من الأمور، إذا كان متأكداً أنه لا ينتظره جراء ذلك أي عقاب"⁽⁵⁶⁾.

يرتبط تفسير سعادة الفضيلة في مذهب المتعة بشكل مباشر بإحساس المتعة، ومباشرة ذلك أقرب مما هي عليه عند الأبيقورية. أما أرسطو فيصل إلى درجة الموافقة على الأخلاق العدمية والفساد وعلى استخدام أية وسائل لتحقيق المتعة. ويرفض أرسطو مقولة المسؤولية، وينظر إلى المصادقة كقوة خارجية للشخصية.

يبرز هنا سؤال، يذهب بعيداً خارج أطر هذا أو ذاك من التفسيرات الأبيقورية أو تفسيرات مذهب المتعة كمقياس للفضيلة. ولهذا السؤال تلك الأهمية، التي تستوجب طرحه. والسؤال هو: ما هي أهمية الأخلاق الاجتماعية للمذهب العلمي الأخلاقي، التي

(55) - المصدر السابق نفسه 261.

(56) - تعليق على كتاب: مالتسوف. أ: تاريخ ونقد مذهب المنفعة 1878. ص 21.

تهمل المتطلبات الأخلاقية الاجتماعية؟ يمكن الإجابة على هذا السؤال بشكل مختلف، حسب اختلاف الظروف والحالات. عاش كثير من الناس، حتى أيامنا هذه ويعيشون كنفعيين، عارضين نموذجهم الحياتي المكتظ بالمعنى الأديولوجي والروحي. ونموذج الحياة هذا، في الحقيقة، ليس بالروحي، بل هو برجوازي صغير - ويعتبر بطبيعته مخالفاً، قبل كل شيء لنموذج الحياة الاشتراكي، مع كل ما يستتجر، من جراء ذلك، من آثار.

لا يمتلك مذهب المنفعة كنموذج حياتي على أساس واحد خاص به ويرتقي بالارتباط مع المستوى العام لرفاهية الشعب وهو عبارة عن نامية طفيلية عليها مستمدة من الموضة الأكسيولوجية⁽⁵⁷⁾

(57) - الأكسيولوجيا (الأخلاقية) (علم، أو نظرية القيم، axiology: من اليونانية axia - قيمة، Loges - علم، بحث) - نظرية، تبحث في المسائل الفلسفية للقيم الأخلاقية، والأكسيولوجيا، كمبحث فلسفي مستقل يدرس مشكلات القيم الاقتصادية والجمالية والأخلاقية والتاريخية الخ. لم تظهر إلا منذ فترة قصيرة نسبياً - في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

والأكسيولوجيا، كمبحث في الأطياف يدرس مشكلتي الخير والشر تتميز، أحياناً، عن الديونتولوجيا (علم الواجب). أما المسائل الأساسية للأكسيولوجيا الأخلاقية فهي التالي: ما هو الخير، هل هو صفة موضوعية لتصرفات بشرية معينة، أم صفة يصيغها الوعي الأخلاقي عليها؟ كيف يقيم الناس التصرفات على أنها خير أو شر؟ - المرجع: معجم علم الأخلاق. دار التقدم. موسكو، ص 83 - المترجم.

(استهلاك كمالي) ومن ديناميكية الدعوات السيكلولوجية لعينات اجتماعية معينة من الناس.

في حالات أخرى، نلتقي أناس، يعترفون بمذهب المنفعة، دون أن يطبقونه عملياً في الحياة، وعندها يأخذ ذلك، إما شكلاً من أشكال البحث المفيد في الحياة لعقيدة حياتية هامة أو يظهر عداًئاً على شكل ما نحن فاقداً للروح، الأمر الذي يستدعي فعل معاكس محدد وفعال، ليس موجهاً فقط إلى نزع الجحد عن المثل الانتفاعية، المعيرة عن حياة الرخاء وغير ذلك، بل يدخل في تركيبها مجموعة مركبة من التدابير الوقائية، التي يجب أن ينظر إليها في "قسم الطوارئ" من برنامج التربية الاجتماعية للناس⁽⁵⁸⁾.

وفي النهاية نجد حالة ثانية، تتطابق فيها النظرية مع الواقع في مذهب المنفعة. وغالباً ما يشخص أدباء الاجتماع هذه الحالة بـ "مرض الإستهلاك السلعي". ولن نقوم هنا بالغوص فيها تفصيلاً. إذا فحصنا الحقائق المتعلقة بتاريخ علم الأخلاق، نحصل على اللوحة التالية: شكل أستيبوس، الذي عاش في مدينة قديمة تدعى

(58) انظر، عن هذا بأكثر تفصيلاً، مقالة ف. مومسوف، الموجودة في المؤلف المشترك:

العملية الأديولوجية في تربية الشخصية. صوفيا 1977.

قبرينا⁽⁵⁹⁾، في القرن الثالث قبل الميلاد، الأوضاع الرئيسة لمذهب المنفعة وصنع منها قناعات خاصة، إلا أنه بقي وحيداً على مواقف مذهب المنفعة الأخير (أما البقية الباقية من القورينائيين، حتى إذا لم تتحدث عن الأبيقوريين، فقد رفضوا تقبل الصفات الكريهة لهذه "النظرية").

بهذا الشكل، أعطي مذهب المنفعة في اليونان القديمة شكل النظرية، واستطاع هذا المذهب عملياً أن يؤثر بشكل سريع في الامبراطورية الرومانية في أزمنة الإنهيار (على الرغم من أن الرومان لم يُدخلوا أي شيء إلى نظرية مذهب السعادة).

كان الرومان يؤمنون بالمثل الذي يقول "إصطاد الفرص"، إلا أن أسس مذهب المنفعة كانت موضوعاً مسبقاً من قبل أرسطيوس، وعلى هذا الطريق سار المذهب المذكور. أكد أرسطيوس قائلاً: يجب أن أعتبر أن اللذة هي الخير الوحيد لنفسي، ذلك الخير، الذي تكون فيه اللذة جسدية (بما أنني عبارة عن جسد، فكل ما يتعلق بي ينتمي إليه)، وقتية (لأننا لا نعرف شيئاً آخر)، إيجابية "موجبة"، لأن اللذة السلبية - هي عبارة عن غياب المعاناة وليست لذة بالمعنى الخاص للكلمة.

⁽⁵⁹⁾ قبرينا (بالاغريقية (Kyrene ، مدينة في ليبيا الحالية). مدينة قديمة تعد 15 كم عن الشريط الساحلي للبحر المتوسط، وتعتبر المركز الرئيسي لظهور مذهب القورينائية المؤسس حوالي عام 630 قبل الميلاد من قبل المستعمرين الإغريق.

لهذا فإن ما يسمى بالسعادة، هو عبارة عن مجموعة من اللذات المتتابعة زمنياً، وتكوّن مجتمعة، المضمون الكلي لحياة الإنسان. من هنا "نلمس سهولة تشكيل البرنامج الحياتي عند أرسطيبوس، إذ هو: يعتمد على الرضاء باليوم الحاضر والحصول على اللذات الممكنة، الجسدية قبل كل شيء، وعدم الإكتراث بالعواقب والحفاظ على الإمكانيات وعدم الخجل من تقديم أية وجهة نظر، أياً كانت"⁽⁶⁰⁾. بهذا نجد أن تفسير مقولة الفضيحة، انطلاقاً من روح مذهب المنفعة أو روح الأبيقورية ومن خصوصية ارتباط الفضيحة بالسعادة، يظهر لنا أن مذهب السعادة كان اصلاحي المواقف إلى حد ما، وسعى لإدخال مفهوم المسموح واللذة المقونة في وعي الناس واعتبر أن الأخلاق عبارة عن مُوجه يدعم الشعور الحياتي المفرح للإنسان، كما سعى أيضاً للحصول على أقرار عام لتصوراته عن الفضيحة، التي توافق أخلاقية برنامجه الرئيس، المرتبط بتحقيق السعادة.

يجب القضاء، على الاختلافات السابقة الذكر! هذا ما أصبح شعاراً لتطوير مذهب السعادة وأحل في الوقت نفسه مذهب للمنفعة معتدل قورينائي قنوع محل مذهب السعادة الارستيبوسي، وبعدها الأبيقورية ومساعدتها خلف المتع الثقافية وتحقيق الروحية

⁽⁶⁰⁾ Tetarkewicz W. Qszizisciu Wyd S. W- wa 1962 p. 505 -

الفردية المعتدلة والكافية بذاتها. أكد الأبيقوريون على أفضلية المتع الثقافية، ما دامت أطول استمراراً، وتتعلق بالماضي كتعلقها بالحاضر، للفرد كما لبقية الناس أيضاً.

إن مذهب المنفعة، الذي امتلك عند دعائه صفات غير جذابة ومنفرة، حينما كانوا يفسرون الصفة التقليدية للإنسان، الفضيلة، بمثل هذه الروح، أصبح بحلول الأبيقورية يمتلك صفاتاً ذات طبيعة خيرة وسامية. علّم أبيقور وجوب خضوع جميع الشهوات والمخاوف للحكمة، وبدون ذلك ينحرف الإنسان عن طريق الحياة الفاضلة. كما علّم وجوب التغلب على الآراء الوهمية والأصنام المزورة.

وقفت الأبيقورية بشدة ضد سيادة الخرافات الدينية وخرافة الموت، كتب أبيقور قائلاً: إن الموت مخيفٌ بحد ذاته، أما الذي يؤثر فينا فهو الخوف من الموت. يقع الموت خارج مشاعرنا، وهذا لا يعني أنه غير وجود. عندما نكون موجودين، يكون الموت غائباً، وعندما يكون الموت موجوداً، نكون غائبين. يجب أن نتصر على الخوف من الموت بقوة العقل، وأن لا ندعه يدفعنا إلى أعمال تعيسة. عبرت هذه الكلمات ولا تزال تعبر إلى الآن عن الحقيقة، التي نقف أمامها رافعي الأيدي. إن تجار الموت

الامبرياليون الحديثون والخبرات الفلسفية المتشائمة المختلفة⁽⁶¹⁾،
التي تؤيد تدمير الوجود البشري، كلاهما منتشران في
الأيديولوجيا البرجوازية الحديثة بشكل واسع جداً. أما ما يميز
الأييقورية فهو الدرجة الأخلاقية العالية للاعتدال والصدقة، وهذا
ما جعل هذه النظرية تحتل مكاناً مميزاً وترتفع إلى المستوى الذي
وصلته أفضل نجاحات ثقافة البشرية الأخلاقية.

نعود ثانية إلى القيمة الرئيسة لمقولة مذهب السعادة، ولكل
نظرية أخرى في علم الأخلاق - إلى مقولة (مفهوم) الخير السامي.

(61) - كنا قد بحثنا هذا الموضوع بالتفصيل في أحد أعمالنا - انظر: نيشيف
كيريل: جدال حول القيم الأخلاقية في المجتمع الاشتراكي - النظرية الاجتماعية الحديثة.
صوفيا 1975.

الخير السامي (الرفيع)

لعب مفهوم الخير السامي في علم الأخلاق الما قبل ماركسي دور النابض القوي، حيث كان يوزع نشاطه بين جميع أفرع منظومته. وإلى هذا المفهوم كانت تنتهي جميع خيوط التأسيس النظري والبرهان على أحقية المبدأ الرئيس، لهذا أو ذاك من أنظمة علم الأخلاق. وفقط بحلول علم الأخلاق، الذي يعتمد على الديالكتيك المادي العلمي، والذي كان يجري فيه وعي الأخلاق كبرامج متغيرة محددة لوعي الناس الأخلاقي، أصبح مفهوم الخير السامي مقولة مؤسسة نظرياً ومختبرة وليست مقولة ذات مقاهيم موضوعة مسبقاً.

أما دعاة مذهب السعادة فقد إعتبروا أن السعادة ما هي إلا الخير السامي. تزعم هاسندي وجهة النظر هذه، وقال في كتابه "عقد الفلسفة الأبيقورية" بهذا الخصوص: "تسمى السعادة، قبل كل شيء، الهدف النهائي، أي أنها الخير السامي النهائي والرئيس، والخير، يسمى كذلك، ذلك الشيء، الذي يشير

الإنجذاب (المهوى) للنفس، والذي يكون فيه بعض هذا الخير متمنى لذاته وآخر مطلوب للحصول على الخير من نوع آخر، والسعادة كذلك- هي الخير، الذي يجب أن تخضع له جميع أنواع الخيرات الأخرى⁽⁶²⁾. ويتابع قائلاً: "إن اللذة التي بدونها لا يمكن تصور وجود مفهوم السعادة - هي الخير بطبيعته الخاصة ... اللذة - هي هدف الحياة ..."⁽⁶³⁾. وعند الأبيقورية نجد أن الخير السامي - هو السعادة، أو هو ما يماثلها "العيش الرغيد"⁽⁶⁴⁾. غير أنه، تعترضنا هنا خطيئة منطقية واحدة، في تفسير مفاهيم "الخير السامي"، "السعادة" و "اللذة". حددت مسلمة الخير السامي كهدف أخير للإنسان، النشاط الأخلاقي ضمن أطر جسدية كالإحساس المادي والمشاعر المرئية.

إذا أردنا أن نفهم، أين كان مذهب السعادة حقاً، يجب علينا أن نعود إلى منافسه النظري، داعية مذهب المنفعة "كانط"، إذ وجد كانط أنه يجب أن لا نربط الخير السامي بالسعادة بل بالقانون الأخلاقي وبالدين ("إن القانون الأخلاقي، خلال مفهوم الخير السامي كموضوع وهدف أخير للعقل العملي النقي، يؤدي

(62) هيندي ب. أعماله في مجلدين، المجلد الأول، موسكون 1965 ص 304 - 305.

(63) المصدر السابق، ص. 312، 305.

(64) المصدر السابق، ص 305.

إلى الدين ...⁽⁶⁵⁾. وهذا سرعان ما يوضح الوضع. تنطق مقولة الخير السامي في علم الأخلاق بوجهات النظر الدعائية لنظامه. يعتبر نظام مذهب السعادة أن الخير السامي طبيعي بجوهره، وأن التسوية الأخلاقي السامي، الذي يحصل على اللذة، أو بشكل أدق، على انفعال إنساني طبيعي، هو بالضبط ما تعنيه هذه الكلمة، أما في نظام مذهب المنفعة فيرتبط الخير السامي بالقوة، التي تلحق الأخلاق لتجعله تابعاً لنفوذها "لسلطتها". كتب كانط قائلاً: "يأمرني القانون الأخلاقي بتحقيق الهدف النهائي بأي سلوك خير سام ممكن في العالم".

إلا أنني لا أستطيع الاعتماد على تحقيق هذا الخير عن طريق مماثلة إرادتي (رغبتي) مع إرادة (رغبة) خالق العالم الخير المقدس فقط، على الرغم من أن مفهوم الخير السامي هو مفهوم متكامل، تقدم فيه السعادة العظمى بالارتباط دائماً مع التقدير الكبير للتحقيق الأخلاقي (الممكنة بالنسبة للكائنات الحية) وفي تناسب محدد ودقيق مع سعادتي الخاصة، لا سيما حين أعلم أن القانون الأخلاقي (الذي يحدد بدقة أكبر ظروف السعادة المطلقة المرغوبة) هو، الذي يعبر عن القاعدة المحددة للإرادة والمخصصة لمساعدة هذا الخير السامي وليس سعادتي الخاصة، لهذا بالذات تكون

(65) - كانط ي: أعماله، المجلد الرابع، الجزء الأول ص 463.

الأخلاق - حسب قناعة الفيلسوف الألماني - هي نظرية لا عن ما هو العمل، الذي يجعلنا سعداء، بل هي نظرية عن كيفية أن نكون أهلاً للسعادة. وفي هذه الحالة فقط، وإذا شاركنا الدين بذلك، يظهر هنالك أمل في إمكانية أن نحصل على السعادة في زمن ما، بحسب ذلك القدر الذي نعتني فيه بأنفسنا لنصبح أهلاً لها⁽⁶⁶⁾.

في جدل الألفي عام هذا، ابتعد كانط عن أيقور قرابة الألف عام ليس بالمعنى الزمني، بل بالمعنى التاريخي البحث. ونحن لا نستطيع أن نقف فقط مع ذلك الاتجاه، الذي يكون فيه الإنسان، حتى لو بإسم الأخلاق، والمقدسات وغيرها ذليلاً، إلى تلك الدرجة التي يصبح فيها خادماً للقانون أو منفذاً لإرادة غريبة، بل نحن مع أن يكون مستقلاً واثقاً بحقيقة وجوده وبإمكانات هذا الوجود. والأمر هنا، لا يتعلق بإختيار تقريبي للحالة، بل هو قبل كل شيء يأتي نتيجة للبرهان العلمي الأخلاقي النظري.

تتطلب عملية البناء الاجتماعي الماركسي للعالم كهدف للمجتمع الاشتراكي الحقيقي، نحت أساس ذلك المبدأ الذي يؤدي إلى النمو المتعدد الجوانب الإيقاعي والمنسجم للشخصية، بحيث يصبح التطور الحر للفرد شرطاً من شروط التطور الحر للجميع.

(66) - المصدر السابق ص 463 - 464.

ومثل هذا النظام الاجتماعي فقط، يمكننا تسميته بالخير السامي وجوهره هو سعادة كل إنسان. لكن يتضح لنا من ذلك، أن محدودية مذهب السعادة بنماذجه التاريخية المختلفة انحصرت في سذاجة التماثل بين الخير السامي والسعادة والأخيرة مع اللذة. وفي الحقيقة، إننا حينما نؤكد على هذه المحدودية، من واجبنا الاعتراف أن علم الأخلاق الماركسي لم يعرض أية أنانية زمنية بتاتاً. ولا يمكننا أن نقول أن أبيقور ولا حتى هاسيندي طوروا أية نظرية اجتماعية اعتماداً على أية معارف علمية. ويبدأ طريق المعرفة الإنسانية- من معرفة الذات، وهي على الأغلب تكون محدودة الوسائط.

في أسوأ الحالات، تكون قيمة مذهب السعادة كنظرية علمية أخلاقية، مأخوذة كتصور محدد للخير السامي، محصورة في توجيهها بتفكير البشر إلى تلك القيمة الحقيقية، التي أصبحت منذ ألف عام تلعب دوراً هاماً في كل عضو من المجتمع.

نعود الآن إلى تحليل مقولة نظرية مذهب السعادة، التي اختيرت في زمن سابق عن المقولات الأخرى، إلا أنها لا تزال تمتلك رنيناً حيوياً. وهذه المقولة هي مقولة المنفعة (الفائدة).

اعترف علم الأخلاق الماركسي بمسؤولية الإنسان عن جميع علله وسلوكه. وإذا اعتبرنا هذه المسؤولية حقيقة من الحقائق،

فيمكننا القول أن اللاهوت كان المقتصب الأول له، والدين قبل كل شيء، الذي يُعتبر مذهب نفعي معكوس عن علم الأخلاق. ونشاهد مثيلاً لهذه اللوحة في تفسير مقولة المنفعة.

إذا أردنا أن نفسر هذه اللوحة بنقوشها، يجب أن نعود ولو لدقيقة واحدة إلى النتائج العامة الخاصة بمقولة "الخير السامي". إن مفهوم "الخير السامي" - هو ثمرة تطور علم الأخلاق، المبني على أساس ميتافيزيقي.

قيمت جميع النظريات الماقبل ماركسية مفهوم الخير السامي - إذا ابتعدنا عن الاختلافات غير الجوهرية - كجوهر للإنسان وحالته الأخلاقية. ولكن نتيجة لأنه تم فهم الإنسان من خارج محيطه الاجتماعي وعلاقته الاجتماعية، على الرغم من أنها الوحيدة التي يمكن أن تقدم مفتاحاً لكشف ميزاته السلوكية الأخلاقية المطلقة أم النسبية، نتيجة لذلك دخلت إلى هذا المفهوم خواص مختلفة، إلى حد بعيد، وصدفية لسيكولوجيا وتفكير الإنسان (لوحظ بالتجربة، عن طريق الخبرة الخارجية والداخلية، إنها كانت مهمة للقناعة). كما إن عزل المثل الأعلى ووضعه في وضع معاكس لطبيعته، وتعميم خواص السيكولوجية الأخلاقية على شكل (طبيعة إنسانية خالدة)، لم يسمحان لمذهب السعادة اكتشاف المكان الحقيقي للشخصية في المجتمع وتخمين معنى

الأهداف البشرية- من هنا يصبح جلياً، أن تفسير الخير السامي هو، فقط، الذي يوضح سلبية العلمية والمثالية في علم الأخلاق الما قبل ماركسي بشكل عام وفي مذهب السعادة بشكل خاص.

انطلق خطاب مذهب السعادة من وجهات النظر المثالية، متيحاً الديناميكية السيكلوجية الأخلاقية للشخصية، لكنه عندما باشر باستخدام مقولة "الخير السامي"، ظهرت حتمية التفكير عن نوع الملازمة المطلقة، أي قدم الأمر بذلك الشكل، الذي يجب فيه أن يخضع كل شيء لمنطق البحث عن السعادة من قبل الفرد.

اعتمدت المثالية، في وصفها لسيكلوجيا الأخلاق، على الجسدانية، ("الجسد"- كما ترجم عن الإغريقية القديمة- "المهدف") بالشكل التفسيري النظري العام العلمي الأخلاقي لطبيعة الأخلاق). وضع كامل علم الأخلاق الما قبل ماركسي فاصلة على مسألة المصير الشخصي وسعادة الإنسان الفرد. وإتسمى فيه الخير السامي إلى النشاط الفردي فقط، وكان هذا هو المهدف النهائي وتحقيقاً لجميع الجهود الفردية- لهذا فإن جميع أشكال السعادة، التي انتجها علم الأخلاق هذا، صيبت في عنوان الحمل فحسب، الذي تمنى على الدوام، السير في طريق اصلاح الفرد ذاته.

لم يُعبر علم الأخلاق الما قبل ماركسي ولم تعر نظرياته عن السعادة أيضاً، اهتماماً مقصوداً إلى أفعال الناس الجماعية، وهنا لا تكمن خصوصيته التاريخية فقط، بل ومحدوديته المبدئية، وبذلك يكون قد أدى وظيفته التاريخية حسب ما تمليه عليه إدعاءاته الرئيسة، التي لا تناسب إلا الماضي.

وإذا فهما الإنسان وجوهره، انطلاقاً من تربة النظرية الماركسية، كمحصلة لمجموع العلاقات الاجتماعية، لا تقدم عندها على تحريك الهدف النهائي المطلق أمامه على شكل طعم أخلاقي. وهكذا فقط، لا نضع جوهر الإنسان المنشود داخل أطر ضيقة "الخير السامي" كهدف مطلق أو كنهاية للوجود البشري. كتب لينين في "دفاثره الفلسفية" قائلاً: يجب أن ندرك الخير كأي مضمون محدود في حياة الناس العملية، أي بما معناه، ذلك الوضع، الذي لا يرضى الإنسان فيه من عالمه، بل يسعى بتصرفاته وقراراته لتغييره. وأثناء عملية التغيير هذه، يتغير الإنسان كذلك، يحقق البشر مآثر تاريخية عظيمة، وتقوم الأخيرة بدورها أيضاً في توسيع آفاقهم، وضمن هذا المسار فحسب، يجب البحث عن جذور السعادة البشرية. هكذا يطرح علم الأخلاق الماركسي السؤال، متخلصاً من الأخطاء والألغاز، التي عاشت في نظريات علم الأخلاق سابقاً.

كما يجب إغارة الانتباه أيضاً إلى إحدى الحالات، التي ميزت مبدئياً علم الأخلاق الما قبل ماركسي للسعادة، حيث كان واثقاً من إمكانية الوصول إلى الحقيقة المطلقة في البحث عن السعادة. بهذا الشكل عُبر عن الحماس الإنساني في التمييز لمذهب السعادة- السعي لإسعاد البشرية والتنقيب عن الطرق المؤدية إلى السعادة. ولكن، أدت هذه التنقيبات عملياً، في نهاية المطاف، إلى إرضاء الإيمان الديني المتبدل، نتيجة للتشكيل الخاطئ للمهمة المبحوثة (ما هو مثيل للمحرك الأبدي في علم الأخلاق). لماذا؟

لأنه، وقبل كل شيء، إن الله - هو تلك الفكرة، التي تملك معنى "الصندوق الأسود"، حيث يُرمى بجميع الأسئلة، التي تبقى عالقة دون جواب، والتي لا يمكن التوصل إلى الأجوبة عليها بطرق المعرفة، كما هو عليه الحال مع الخير السامي (لتذكر ثانية كلمات كانط عن ذلك).

أصبح الآن أكثر وضوحاً، أن التطور اللاحق لنظام مذهب السعادة يجب أن يدخل تلك المقولة، التي حطت من قيمة نظرية الخير السامي حتى درجة الحقيقة الاجتماعية. إذا كان الفحص النظري والاختبار الحازم المطبقين على الأخلاق لم يصمدا أمام سيكولوجيا الفرد، فمن الضروري، أثناء البحث عن أسس راسخة للسعادة، أن نتوجه إلى السمات المحددة الموضوعية

والملموسة للحقيقة، الشديدة الارتباط بمحاجات ومصالح البشرية. هكذا ظهرت مقولة المنفعة في مذهب السعادة. وهي التي ظهرت في الوقت، الذي ظهر فيه الإصلاح، الذي صابر عليه مذهب السعادة الكلاسيكي ضمن أطر الفلسفة البرجوازية بعد بروز مذهب المنفعة.

في أي اتجاه نفذ الإصلاح في مذهب المنفعة؟ هل في اتجاه تطوير نظرية السعادة الكلاسيكية، أم في اتجاه انقراضها... هذا ما يجعل من الضرورة، تفسير مقولة الفائدة بطريقة مذهبية نفعية. توصل الفيلسوف الانكليزي المشهور، بنتام، الأخلاقي والقانوني والاقتصادي النفعي التقليدي إلى خاتمته المنطقية، المتضمنة في التفكير النظري لعلم الأخلاق عند بيكون⁽⁶⁷⁾، هوبس ولوك.

عاش بنتام في ذلك العصر، الذي كانت فيه البرجوازية الانكليزية تهتم بالمصالح والأمزجة القومية العامة، لكن، في الوقت نفسه، كانت تتأصل في نمطها الحياتي بعمق لغة "العلاقات التجارية القذرة" (العودة إلى ماركس)، وكانت قد فقدت تلك المثل العليا، التي ناضلت من أجلها في (ثورتها المجيدة) عام 1688،

(67) - بيكون فرنسيس (1561 - 1626) فيلسوف بريطاني، مؤسس للمادية الانكليزية - المرجع: الموسوعة السوفيتية الكبرى، المجلد الرابع ص 192 - المترجم.

وهالة حوافزها الخالية من الغرض. ولّد مذهب المنفعة الكلاسيكي عند بنتام، في مثل هذا الجو، ذلك المبدأ الذي بني بشكل كامل على الإحصاء الحسابي للعمليات الأخلاقية، وكان موجهاً لتأمين الفائدة للتاجر ولرجسالة الأعمال، الذين اعتبرهم بنتام، حسب كلمات ماركس، مماثلين تماماً للإنسان الطبيعي.

ظهر مذهب المنفعة كتيار أخلاقي واحد في أديولوجيا الأخلاق البرجوازية، في البداية على شكل مجالات متحلقة، في نظرياتها العلمية الأخلاقية، للبرهنة على حقيقة المنفعة الاجتماعية، معتمدة على الموقف البرجوازي، الذي كان مسيطراً على طبقة بنتام وميل (جورج ستوارت) الاجتماعية الحديثة التكون.

برهن دعاة مذهب المنفعة على أنه يمكن الحديث عن الخير والأخلاق والواجب والسعادة فقط، في ذلك المكان، الذي يوجد فيه تصور عن الفائدة. ويجب أن نشبع جميع هذه الظواهر الأخلاقية. أما الدافع الرئيس لهذا الإشباع فهو، الإجابات على الأسئلة التالية: باسم ماذا؟ لمن تذهب هذه الفائدة؟ تظهر الفائدة من نظام التلبات (الإرضاءات)، الذي يعود لمذهب المنفعة قبل أي شيء آخر. كتب بنتام قائلاً: يفهم من مبدأ الفائدة، ذلك المبدأ، الذي يصادق أو لا يصادق على ذلك الفعل المنفذ، انطلاقاً من الدالة التالية: "هل تمكنت.. المساعي من زيادة السعادة أو

إنقاصها... أو إذا تكلمنا بكلمات أخرى، هل ساعدت أو أعاقَت هذا السعادة"⁽⁶⁸⁾. بهذا الشكل، سعى مذهب المنفعة إلى إيجاد علم جديد دعاه "علم المنفعة" (وإلى عدم خلطه مع التيار النظري العام في علم الأخلاق، الذي فسر طبيعة الأخلاق انطلاقاً من الواجب والفضيلة). "نفهم الفائدة بأنها تلك الخاصة للأمر، الذي يسعى إليه الإنسان والذي يحمل له مكسباً ولذة وخيراً أو السعادة (وهذا جميعه يؤدي إلى الشيء ذاته)..."⁽⁶⁹⁾. حاول بنتام تجزئ الأخلاق إلى عناصرها الأولية المركبة. تحت إسم الحركات الكمية (نشير هنا إلى مركز الثقل لهذه الحركات في مذهب المنفعة الحديث- الذي نال انتشاراً واسعاً في العالم البرجوازي- الذي تمكن من إزاحة العناصر المكونة "مبادئ مذهب المنفعة" و "رذائل مذهب المنفعة) وتقريب اللذة وجعلها من حلفائه.

تتصف اللذة، حسب بنتام، بسبعة مؤشرات هي:

- 1- الشدة (القوة).
- 2- الاستمرارية.
- 3- الرية أو عدمها.
- 4- القرب أو البعد.

⁽⁶⁸⁾ - بنتام ي. مؤلفات مختارة، الجزء الأول 1867 ص2.

⁽⁶⁹⁾ - للمصدر السابق ص 28.

5- الخصوبة (لذة العقم، إذا كانت الخصوبة تتبعها الآلام).

6- النقاء.

7- الانتشار⁽⁷⁰⁾.

يستطيع الناس المسلحون بهذه المقاييس أن يتوصلوا إلى نتيجة بواسطة جهودهم الحياتية والوصول إلى التوازن الأخلاقي الإيجابي. هذا ما جلبته الفائدة حيث قدمت نتيجة عامة للخير، أما ابتساماتها فقدمت الشر.

هكذا رأى بنتام مستقبل مذهب المنفعة، الذي أوجدوه في العلاقة العملية بين الناس. لا شيء يعتمد على الذاكرة أو على أحاسيس الانتظار الحياتية الصدفية. يجب إخضاع النفس لسلطة الحساب المنطقي والتصرف على أساس ذلك. حتى عندما يمتلك الناس مفاهيم مختلفة عن اللذة والسعادة، فإن الحساب الكمي والمراقبة القياسية للنفس، يستطيعان تأمين ما يحصلان عليه وتقديره لهم. هكذا يتوصل بنتام إلى الفهم الكمي للأخلاق والمثل الأخلاقي الأعلى: "أكبر كمية ممكنة من اللذات أو أكثر الخير لأكثر عدد ممكن من الناس".

كان ماركس محقاً ولاذعاً بتقييمه لهذا المبدأ وتطوره المستقبلي حين سمى بنتام بعقري السخافة البرجوازية.

(70) - المصدر السابق ص 37.

أكد بنتام على أنه ويهدف زيادة كمية السعادة في المجتمع، يجب على الفرد أن يسعى للحصول على سعادته ومكاسبه الخاصة. والحاضر أصم، لا يستطيع أن يميز بين مصالح الناس. بهذا بنى بنتام حقيقة اليتوبيا الرجعية على جثة علم الأخلاق (وظهرت أسس مشابهة لذلك بشكل متكرر، ونشير هنا إلى المبادئ المنقذة للهناء المطلق بدون استثناء).

نكشف التناقض الظاهري في مذهب المنفعة، عندما يخلط بين المشاعر الموضوعية والقيمة الأخلاقية لأحاسيس اللذة والقيمة الأخلاقية السلبية. إن الرضاء الذاتي لا يعطي قيمة أخلاقية مباشرة، مرتبطة بمآرب أو بتحقيق رذيلة، لأنه يعتمد على تقييمه الخاص لذلك أو للتقييم الذاتي للشخصية. تختفي جميع هذه التفرعات التي تحيط بالقيمة الأخلاقية من تصورات بنتام.

نستنتج مما سبق، أن الإصلاح، الذي تقدم به بنتام لمبدأ السعادة ذو طابع رجعي، لأنه ليس من السهولة إرجاع الخير السامي إلى الكمية الأكبر من اللذات، التي شوهت الأخلاق بشكل عام وتلك العمليات التقليدية الفكرية التي تجري في وعي الناس الأخلاقي. لكنه بدلاً من ذلك، يجب أن نرى النتيجة السلبية الثانوية، التي توصل إليها مذهب المنفعة في عمله العلمي الصعب الخاص بالسعادة، ذلك الأمر الذي يشار إليه معتمداً على الأطر النظرية للعلاقة "أنا- الآخرون"، "الشخصية - المجتمع". نجد

في هذا الاتجاه النظري الجديد- كما أشار كلاسيكيو الماركسية- أساساً اجتماعياً كافياً: في المجتمع البرجوازي وفي عصر التنافس الحر "تخضع جميع العلاقات عملياً لعلاقة مطلقة وحيدة- هي العلاقة النقدية التجارية"⁽⁷¹⁾.

خلط دعاة مذهب المنفعة، خلطاً خاطئاً، الرضاء الذي يحصل عليه الإنسان نتيجة للسلوك مع البواعث، التي تسبق هذا السلوك وتحفزه، وهذه بدون أدنى شك أمور مختلفة. أو كما كتب البروفسور ميخالتشيف قائلاً: "نحن لا نبحث عن ما يلحق بها، وخلال ذلك فقط، تستطيع اللذة أن تقع في محيط الهدف"⁽⁷²⁾.

أماط كل من ماركس وأنجلز اللثام عن مذهب المنفعة: "إن بتنام- حسب ماركس وأنجلز- يجعل من التنافس الحر جوهرراً للأخلاق، ويضبط العلاقات الإنسانية حسب قانون الملكية...."⁽⁷³⁾.

لا يعارض علم الأخلاق الماركسي فائدة الأخلاق، بما أنها ارتباط بين السعادة والفائدة. عن هذا الأمر كتب بليخانوف⁽⁷⁴⁾

(71) - ماركس ك. وأنجلز. ف: مؤلفات، المجلد الثالث ص 409.

(72) - ميخالتشيف د- باحث سوفيتي، إختص بعلم الأخلاق - للرحم.

(73) - ماركس ك. وأنجلز. ف: المؤلفات، المجلد الأول ص 616.

(74) - بليخانوف، جيورجي (1856-1918)- من رجال الحركة العمالية الروسية والعالمية، ومن منظري الماركسية المروجين لها في روسيا. كان بليخانوف يرى أنه من

قائلاً: "يتبع التطور الأخلاقي للبشرية الضرورة الاقتصادية خطوة خطوة، ويتلاءم بشكل دقيق مع متطلبات المجتمع الحقيقية..... وفي هذا المعنى بالذات، يمكن ويجب أن نقول أن المصلحة هي قاعدة الأخلاق"⁽⁷⁵⁾. أما الفائدة الأخلاقية المعترف بها في الماركسية فهي - الوضع والضرورة الاجتماعية التاريخية (إن الأخلاق ليست خيلاً وليست شيئاً موهماً، بل هي وسيلة للتأثير على التقدم الاجتماعي).

في مجال الأخلاق يتكشف على أتم الوضوح تفوق النهج الماركسي الديالكتيكي في البحث. فالماركسية، وحدها، أعطت إجابات علمية على المشكلات الأخلاقية، المطروحة منذ قرون عديدة. انتقد بليخانوف للنظريات الخاطئة في تاريخ الفكر الأخلاقي، التي تصور طبيعة الإنسان الثابتة أساساً للأخلاق. "كان يعتبر الأخلاق ظاهرة اجتماعية، ليؤكد أن تطور البشرية الأخلاقي يتحدد بالضرورة الاقتصادية، بمتطلبات المجتمع الواقعية. ولكن عملية هذا التكيف التاريخية تتم من وراء ظهر الناس، بصورة مستقلة عن إرادة الفرد "عقله". أما أعماله الأساسية، التي بسطت فيها آراؤه الأخلاقية فهي: "دراسات في تاريخ المادية" 1896، و"حول ما يدعى بالإستلهامات الدينية في روسيا" 1915، و"ن. غ تشيرنيسفسكي" 1909.

المراجع: معجم علم الأخلاق باللغة العربية، دار التقدم، موسكو 1984 ص 121-123 - المترجم.

(75) - بليخانوف ق. ف: مختارات من المؤلفات الفلسفية، المجلد الثاني موسكو 1956 ص 51.

يقدم دعاة مذهب المنفعة تفسيراً ميتافيزيقياً للفائدة بأنها الخاصة الرئيسة للأخلاق، التي تظهر كمقياس وحيد للسلوك الأخلاقي. نال التفسير الماركسي لهذه المسألة انتشاراً أكثر سعة، حيث عنده لا تنفي الفائدة الطمع، وهذه بالذات هي الظاهرة الجلية لتاريخ الأخلاق الحقيقي (لنتذكر الضحايا، التي قدمت بإسم الثورة والحرية الإنسانية والتفكير الحر - والتطبيق الحاصل لمقاييس مذهب المنفعة عليها، كان تجديفاً غير مسموح به). إن عدم الطمع سمة تميز الأخلاق الماركسية، التي خلقت لتخدم كامل المجتمع.

الفصل الثالث

علم الأخلاق الماركسي ومسألة السعادة

يمكن القول، أن المبادئ في فهم الأخلاق، المشكلة من قبل ماركس وإنجلز والتي يحتويها عملهما المشترك "الأديولوجيا الألمانية"، تنتمي إلى مرحلة النضوج في التأسيس الماركسي للنظرية الماركسية، ومنذ ذلك الحين تم التأكيد مراراً على التحليل المستمر لخبرة البناء الاشتراكي وتربية الإنسان الجديد. ويصنف الموقف الماركسي لاختيار وجهات النظر الأخلاقية في الحياة الاجتماعية والفهم الطبيعي التاريخي لجوهر الأخلاق والانتقال من التفسير التقييمي المعدلاتي إلى التفسير النظري البحت، من المواقف العادلة والمنصفة، ماضياً، الآن وفي المستقبل. وتعتبر هذه الأفكار، دون أدنى تفخيم، كنزاً ذهبياً للتفكير الماركسي العلمي الأخلاقي النظري، وإن أدخل مثل هذه المبادئ والمقاييس يمكننا

من إيجاد المفتاح الأمين لتحليل وحل المشاكل الأخلاقية في الظروف الاجتماعية التاريخية المتغيرة.

لم يهمل علم الأخلاق الماركسي، أثناء قيامه برسم الحدود بينه وبين الفلسفة البرجوازية، فيما يخص تفسير المتعة. يختلف احتمالاتها وأنواعها وأشكالها، تلك النجاحات الجيدة، التي اتصف بها الفكر العلمي الأخلاقي الما قبل ماركسي وبشكل خاص ما تعلق بمسألة السعادة نفسها⁽⁷⁶⁾، التي ورد ذكرها سابقاً.

في الظروف الاشتراكية وعلى الأخص في ظروف المجتمع الشيوعي المتطور، تظهر إمكانيات واسعة لمطابقة أكثر الأخلاق المرتقة سمواً التي خلقت في زمن ما، من قبل العقل البشري ذي الخبرة الأخلاقية الاجتماعية الاعتيادية عن حياة الناس الاجتماعية. وهذا لا يعني، بأي شكل من الأشكال، أن الشيوعيين بدأوا نعطهم الحديد بالتبشير للنمط الديني الغيبي (الذي ينتمي للنظرية الدينية في المصير النهائي للعالم والبشرية): عش فاعلاً للخير، فستكافأ على ذلك في العالم الآخر بنفس القدر - عالم الأخلاق السامية وعالم الحق والمساواة. يؤدي اتخاذ مثل هذا الموقف المكافئ للموقف الغيبي إلى الامتناع، بشكل عام، عن المدخل العلمي من هذه المسألة.

(76) - انظر: كورنيف. م. ن: الشيوعية ومسألة السعادة، موسكو 1971.

انطلق علم الأخلاق الماركسي بفهمه واستيعابه لمسألة السعادة، من تلك النقطة التي تتعلق بمسألة التراكم الفكري المؤسس من قبل أديولوجية المستغلين والمضطهدين. وينحصر الأمر هنا في إظهار حيوية أفكار السعادة وتأثيرها على التربية الاجتماعية الجديدة، بدون استغلال والتميزة باختلافات اجتماعية وقومية (لأن الأخيرة- هي التي مكنت من ظهور التصورات حول مذهب السعادة: "إما أن تقدم على أكل الجميع، أو أن تبقى في القذارة" و"إما أن تقوم بدوس الآخرين أو سيقوم الآخرون بدوسك"، "تبنى سعادتك دائماً على تعاسة الآخرين- هذا هو قانون الحياة")⁽⁷⁷⁾. كان من الضروري، أثناء تنفيذ الخطة العملية، التحطيم النقدي لأشكال الاعتراض الأخلاقي غير الواضح ضد الظروف التي تحط من قيمة الإنسان وصناعة اعتراض واضح وتوجيهه في خدمة الثورة. أوضح هذا الأمر بشكل جيد البروفسور تيتارنكو في مؤلفه "ضد الفكر". و"هنالك واحد من الأعمال الفكرية الموحدة، لكنه مُرر عبر أديولوجيات مختلفة (محتواه الاجتماعي الطبقي)، عائداً إلى منطق موحد على شكل متحول غير معروف- كعصبة من الأوضاع ليست مختلفة

⁽⁷⁷⁾ - لندسمان ب.أ: سوغومووف. يوف: علم الأخلاق الماركسي عن السعادة- مسائل فلسفية 1963، العدد 2، لندسمان ب.أ: سعادة معاصرة. موسكو، 1965.

فحسب، بل متناقضة أيضاً. تمتلك المعرفة التجريبية غير المنظمة لأحجام علم المساواة الاجتماعية، التي سمح لها بالعبور خلال منظومة الأدلة العلمية الثورية النظرية عمقاً موضوعياً (ونضيف من قبلنا: حقيقة اجتماعية تقول أن وجهات النظر العلمية الكاذبة حول العالم - الممررة خلال طاحونة اللحوم "على الأخص الرجعية منها"، تعود إلينا على شكل أفكار تشاؤمية عن خلود عدم المساواة الاجتماعية وعدم إمكانية الخلاص منها، والأنكى من ذلك اعتبارهم لها بالعادلة)⁽⁷⁸⁾.

لكن، بقدر ما أنجز من البناء لقواعد مجتمع جديد، بذلك القدر تحركت، علمياً، مهمة النضال من أجل سعادة الشغيلة - لا خلف المتاريس وأسلحتهم بأيديهم - بل في المصانع والمخابر والمناجم وفي الأراضي، حيث سار علم الأخلاق الماركسي على طريق البناء الدقيق لنظرية السعادة، المجربة والمختبرة والمطورة والخاصة بالإنسان الكادح، الإنسان - المبدع. يمكن وصف ميزة موقف علم الأخلاق الماركسي المعاصر من مسألة السعادة ببحث جذي عن الاتجاهات والوسائل اللازمة لتطوير الجوهر الأخلاقي للشخصية الاشتراكية.

(78) - انظر: معجم علم الأخلاق باللغة الروسية، الطبعة الرابعة، موسكو 1981،

وهذا يختلف جذرياً عن تلك التفسيرات، التي أتناها بها أفكار مذهب السعادة في علم الأخلاق البرجوازي، أما الفيليسيتولوجيا⁽⁷⁹⁾ وداعي مذهب النيوبوزيتيف⁽⁸⁰⁾ ونسرات⁽⁸¹⁾ فيرون أن السعادة هي علاقة للموضع السيكلولوجي، لا ترتبط بأية صلة مع القاعدة الأخلاقية الموضوعية⁽⁸²⁾. هذا ما يميز كامل علم الأخلاق البرجوازي، الذي جعل مقولة السعادة عبارة عن يافطة أخلاقية للشخصية، وهذا يجد ذاته لا يعني أي شيء. أما في علم الأخلاق الماركسي فقد امتلكت هذه المقولة أهمية محددة

(79) - الفيليسيتولوجيا: (نظرية السعادة: من اللاتينية FELICITAS - السعادة) - مذهب في تحصيل السعادة، يطرحه بعض المنظرين البرجوازيين المعاصرين، وبينهم الوصفي الجديد نيرات. تنابع الفيليسيتولوجيا كنظرية أخلاقية تقاليد مذهب السعادة (الأيديمونية). لكنها لا تأخذ مقولة "السعادة" أساساً للأخلاق، بل على أنها مجرد حالة نفسية للإنسان، يسعى إليها (وهذا ما يدعى بالأيديمونية العسية). ويحصر هذا المذهب دور الأخلاق بكونها أداة لتحصيل السعادة ويرى نيرات أن اللهم ليس الهدف للموس، الذي يسعى إليه الناس، ولا النتائج الاجتماعية التي سيصلون إليها، وإنما هو الإحساس بالسعادة وحده. وفي نهاية المطاف تطرح "الأطيقا" على أنها علم طرق الإيجاء للناس بأنهم سعداء.

(80) - النيوزيتيف - الإيجابية الجديدة - المترجم.

(81) - نيرات. ر. (NEURATH) (1882 - 1945) فيلسوف وعالم اجتماع واقتصادي استرالي - المرحع الموسوعة السوفيتية الكبرى، المجلد 17 ص 415 - المترجم.

(82) تيتارنكو. أ. ي: تصارع الأفكار. موسكو 1976، ص 199 - 200.

ومتطورة ذات مضمون مناسب، ارتبط بشكل مباشر، بسمات نمط حياة الشخصية الهامة، النمط الاشتراكي للحياة⁽⁸³⁾.

فضح علم الأخلاق الماركسي، حتى في فترته الكلاسيكية، بأقلام كل من ماركس وأنجلز، لا موضوعية التفسير المادي لطبيعة الأخلاق، التي تستخدم مقولة السعادة قبل أي شيء آخر. أكد أنجلز على أنه:

"إذا عمل الإنسان لنفسه ولم يأخذ بعين الاعتبار مصلحة الآخرين، يستطيع بحالات نادرة أن يرضي سعيه إلى هذه السعادة"⁽⁸⁴⁾.

يظهر علم الأخلاق الماركسي السعادة اليوم - على شكل واسطة ومفهوم للوعي الأخلاقي، الذي من جهة يعكس رغبات وتطلعات الشخصية المتعلقة بمفهومه عن جوهر الإنسان ومعنى الحياة، ومن جهة أخرى يعبر عن الميل الأخلاقي السيكولوجي المقنع بالوجود، الذي يلمس به كمال حياة البشرية والمشارك بوجوده بصياغة النظام الاجتماعي العالمي الموضوعي للبشرية أجمع. وعن طريق إدراكه للسعادة، رسم الإنسان طموحاته

(83) - انظر أكثر تفصيلاً عن ذلك في كتاب: الإنسان، نمط الحياة، السلوك الأخلاقي.

صوفيا 1977 (باللغة الروسية).

(84) - ماركس، ك. وأنجلز، ف: المؤلفات، المجلد 21 ص 297.

الحياتية وفي الوقت نفسه قدر مستوى الانفعال بالحقيقة⁽⁸⁵⁾ وبالفعل وبذل جهوداً خاصة لإيجاد مكانة إنسانية مميزة تليق به. امتلكت النماذج المعيارية لتقييم السعادة حتى الآن، تلك المعايير التي يشكلها ويستخدمها العالم الاشتراكي مشاعراً أخلاقية عالية، كان قد حددها ماركس بإقتضاب أثناء إجابته على أحد أسئلة الإستمارة التي أعدتها ابنته:

سؤال: ما هو تصورك عن السعادة؟

جواب: "النضال". النضال من أجل عالم جديد، لتوطيد العلاقات العادلة بين الناس، لتجسيد أفضل الخواص الإنسانية في الشخصية، النضال من أجل الوصول إلى الطموحات السامية الأخلاقية للإنسان.

كيف كانت العلاقة العامة لعلم الأخلاق الماركسي مع إرث مذهب السعادة؟ إذن إلى جانب إحلال تلك النقاط النظرية العامة، التي جرى الحديث عنها سابقاً، يجب الإشارة إلى الآتي: حصل مذهب السعادة على تطوره النهائي وتوصل إلى بساطته ونقائه الكلاسيكيين في تأسيس الفكرة الرئيسة، حتى في أزمنة الأنماط الماقبل برجوازية للمجتمع. وهذا يتصل قبل أي شيء

(85) - انظر أكثر تفصيلاً عن ذلك في كتاب: دورونوف، ب.ن: الانفعال كقيمة. موسكو، 1979.

آخر، بالحقيقة المبدئية، التي تتفق مع طرق الانتاج القديمة في تلك الأنظمة الاجتماعية، التي كانت تخضع لتكوين الإنسان، كتب ماركس قائلاً: "لا نلاحظ عند القدماء، أية أبحاث عن أي شكل من العقارات وأيها تعتبر أكثر ريعية وتشكل ثروة أكبر، لا يظهر الشراء عندهم كهدف للانتاج..."

ويتبع هذا سؤال مفاده: ما هو شكل الملكية، التي تؤمن للدول مواطنين أفضل⁽⁸⁶⁾. وعلى الترخوم بين الحضارة الماقبل برجوازية والحضارة الجديدة يجري عبر التاريخ انقلاب جذري، تفسره مصائر مذهب السعادة إلى حد كبير.

ونلاحظ خلال ذلك، نظرة أخلاقية وأخرى علم- أخلاقية موجهة إلى الماضي (لوحة الماضي، التي مرت خلال الدرب التاريخي): "...إعترف كارل ماركس- بأن العقيدة القديمة، والتي حسبها تم تصنيف الإنسان، أياً كان، في علاقاته القومية والدينية والسياسية، كانت تظهر كهدف للإنسان، والشراء كهدف للانتاج"⁽⁸⁷⁾. وبقي هذا صحيحاً حتى النصف الثاني من القرن العشرين، عصر التطور الصناعي الراقى، عصر الثورة الصناعية العلمية واكتشاف الفضاء، عصر الصراع ضد التروستات

(86) - ماركس. ك. وماركس. ف: الأعمال، المجلد 46، الجزء الأول ص 475.

(87) - المصدر السابق ص 476.

الصناعية العسكرية الامبريالية من أجل الحفاظ على الحياة على كوكبنا الأرض. إلا أنه ومن موقع التاريخ العالمي، تجلب لنا الحقيقة ليس كنظرة إلى الماضي، بل كنظرة مستقبلية. تحدث ماركس عن هذا "في مخطوطاته الاقتصادية بين عامي 1857-1859" قائلاً: "في الحقيقة، إذا رمينا جانباً الشكل البرجوازي الضيق الأفق، فلا يبقى من الثراء غير تعميم الحاجات والمقدرات ووسائل الاستخدام والإنتاج وغيرها، وتوزيعها بين الأفراد توزيعاً عادلاً" (88).

ينحصر حل مسألة النضال من أجل سعادة الناس بالإحاطة بهذه التشكيلة البرجوازية المحدودة الأفق، لا في رفض النضال من أجل السعادة. إلا أنه لا يمكن للسعادة، في التشكيلة السابقة، أن تظهر كهدف للطموحات البشرية بذلك الشكل، الذي اقترحه مذهب السعادة. كما أن ذلك الشمول وتلك البساطة، مضافاً إليهما الفقر المدقع لرغبات وأمانى الناس، التي اعتمد عليها جميعاً مذهب السعادة، جميعها اختفت إلى الأبد.

لم تطلق الاشتراكية كنمط اجتماعي جديد العنان لتطور الشخصية الإنسانية المفردة، بل صنعت إبداعاً تاريخياً امتلكته جماهير الشغيلة وكل شخصية إنسانية وأصبح بالإمكان قهر

(88) - المصدر السابق.

المحدودية القديمة للوجود الفردي، وفي الوقت نفسه، قهرت النزعات البرجوازية، التي تفصل الفرد عن مجموع الخيرات الاجتماعية وأخيراً عن قوى الإنتاج. انطلاقاً من ذلك، يمكننا القول أن مسار التعامل مع مسألة السعادة في المجتمع الاشتراكي في ظروف نوعية جديدة، أكثر عمومية بالمقارنة مع نظائرها القديمة. كما جلبت هذه النزعة، التي اجتاحت حقيقة العالم البرجوازي، الفقر والبطالة واللاوثوقية، أي بمعنى آخر، افقدت الشخصية الإنسانية لذاتها. بالإضافة إلى ذلك، يجب الإشارة إلى أن حل مسألة السعادة اشتراكياً، يكون انطلاقاً من هدف أن يصبح الإنسان ثرياً وغني المضمون، لا كما انطلق دعاة مذهب السعادة. وفي الحقيقة يجري الحديث هنا عن الاستيعاب الاجتماعي المبرمج لكامل الثراء السيكلولوجي الإنساني، وقبل كل شيء، للإمكانات الإبداعية الخلاقة للإنسان. لذلك واجه علم الأخلاق الماركسي عدداً من الأسئلة، لم يعرفها مذهب السعادة ولم يتوقعها العلم الفيلسوفي⁽⁸⁹⁾ البرجوازي الحديث. تستفسر هذه الأسئلة عن وسائل المكافأة الاجتماعية العادلة على المآثر الشخصية، عن الخوافز، عن الموقع الحياتي الإنساني الفعال، عن الأهداف السامية، التي تبرر أفكار السعادة في ظروف المجتمع الاشتراكي،

(89) - يعتمد على الفيلسوفيا (مذهب السعادة) البرجوازي الحديث - المرحوم.

عندما تمتلك أهميتها الحقيقية كأفكار أخلاقية ما دامت هذه السعادة للجميع ولل فرد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أصبحت أغنى بالمضمون وأكثر تطوراً.

جرى، على التوازي مع التحولات المبدئية، إعادة إدراك جذرية للواقع الاجتماعي ضمن أطر النظرية الماركسية حول الإنسان والمجتمع. وعندما فقدت هذه الأفكار أهميتها النظرية الضاغطة كنظرية حول الإنسان والأخلاق، اكتشفت معناها التاريخي المحدد في مرحلة التأسيس الاشتراكي كإنسانية حقيقية وفي مجرى تطور النظرية الماركسية عن الشخصية ونظرية التطور الأخلاقي.

أما فيما يتعلق بإدراك وتقييم علم الأخلاق الماركسي لتلك المسائل، التي طرحها مذهب السعادة الكلاسيكي (علاقة السعادة باللذة، والسعادة بالأخلاق، والسعادة بالحير والفائدة)، فقد حصلت على تفسيرات مختلفة تماماً.

في نظرية الأخلاق الماركسية، التي تنادي بالاجتماعية العامة (غير الفردانية) وبالطبقية التاريخية لطبيعة الأخلاق، لم يكن من الممكن أن تكون مسألة السعادة غير متطابقة مع الأخلاق كاملة. تستطيع هذه النظرية، نتيجة لذلك، التغلب على الصعوبات التي واجهها مذهب السعادة.

إن مسألة السعادة - هي مسألة واحدة فقط، لكنها من أهم مسائل حياة الإنسان الأخلاقية. السعادة هي هدف قياسي وليس هدف وجودي وحيد. وتعتبر حياة الإنسان المعاصر حياة منفتحة وقابلة لجميع التأثيرات، التي عنها لا يجوز القول أنها عملية ذات اتجاه واحد، وتخضع بصرامة لقانون واحد فقط. إلى جانب ذلك، نجد في عملية تكريس السعادة كهدف نهائي تناقضاً ظاهرياً، ذا معنى خاص، كما أشار إلى ذلك مذهب السعادة. إذا كانت السعادة هدف كامل الأخلاق، فإن الأخلاق ذاتها هي التي تبقى للإنسان، عندما يتحقق هذا الهدف. وبدون ذلك، تفقد حياة الإنسان معناها ومصوغاتها. تنحصر القيمة الحقيقية لمقولة السعادة، كما يشير علم الأخلاق الماركسي، لا في إعطاء جواب نهائي على مسألة هدف الوجود البشري ووسائل تحقيقها، بل في الظهور على شكل فكرة ضابطة للوعي الأخلاقي، مساعدة إياها في مرحلة البحث عن التوجهات والقيم والعلاقات الأخلاقية لحياتها. وفي المعنى الخاص، تظهر الأهداف الأخلاقية كقواعد ومبادئ، ومثل عليها، محددة ومتماثلة، خاضعة للتجربة وقابلة للنجاحات.

يجل علم الأخلاق الماركسي مسألة مقاييس أخلاق السعادة (التي وضعها مذهب السعادة للتدليل على اللذة والفائدة) بشكل

مختلف تماماً، لأن الأخلاق تتطابق مع السعادة، بسبب وجود مقاييس أكثر أماناً للأخلاق، التي تكشفها في سلوك الناس. لا تظهر في الأخلاق طبيعة الوجود الإنساني الفردي، بل طبيعة علاقاته مع بقية الناس، ومع المجتمع. انطلاقاً من هذا، نستطيع القول أن مقاييس الأخلاق أكثر اتساعاً ودقة من الشعور الذاتي للفرد. وهذه المقاييس عبارة عن منظومة يدخل في تركيبها تصديقاً للأسس الأخلاقية لنمط الحياة الاشتراكي وتطويراً للحو السياسي الأخلاقي للمجتمع وتوطيداً لصحة الشعب الأخلاقية وأنسنة لعلاقات الإنسان الأولية (في الأسرة، في محيط العمل، في المدرسة وغيرها). ومن المفهوم، أن هذه المقاييس تأخذ بعين الاعتبار، أحاسيس الإنسان الأخلاقية الذاتية أيضاً. وتعتبر درجة التلبية الأخلاقية للحياة، التي تمتلكها الشخصية، واحدة من التوجهات الهامة للتطور الاجتماعي في المجتمع الاشتراكي، لكنها ليست الوحيدة.

على مثل هذا المستوى، تحل أيضاً مسألة العلاقة بين الخير والسعادة، حيث ننظر الآن إلى الإنسان بتوسع ودقة أكبر مما كان يقوم به دعاة مذهب السعادة قديماً، لأن الإنسان يمتلك مجموعة من الخواص المميزة (أعطائها الأخصائيون رقماً يقارب الثلاثمائة، أي تلك المتعلقة بالأخلاق).

يجب أن يكون السعيد بالضرورة خيراً. على هذا يتفق علم الأخلاق الماركسي مع مذهب السعادة. غير أن هذا لا يعني أن كل خير هو سعيد بالضرورة.

والسؤال المطروح هنا هو: ما العمل لجعل كل خير سعيداً؟ يتعلق حل هذا السؤال بتركيبة المجتمع، بالظروف الاجتماعية والأخلاقية العامة، لا بنوعية الإنسان الفرد. هذا ما يختلف عليه كل من علم الأخلاق والأخلاقيات العامة. وهذا ما يختلف عليه كل من علم الأخلاق الماركسي ومذهب السعادة.

وبكلمة أخرى، إذا قارنا تصورات مذهب السعادة الكلاسيكي عن الفكرة الاجتماعية المدركة لسعادة الإنسان مع ما هو عليه في علم الأخلاق الماركسي، نكتشف مسائل أخرى تماماً، ويوصلنا المعنى إلى اتجاه آخر من التقدم الأخلاقي، الحقيقي الواقعي الوحيد، الذي لا ينجب الوهم لمخيلة الأخلاق، لكن الماركسية وكما يشير إلى ذلك أنجلز، لم تنس الأكتاف التي تقف عليها، ولم تنس أيضاً تلك البطولات الفكرية العظيمة، التي قدمتها البشرية في النضال من أجل السعادة والاستقلال ونتائجها التي لا تزال نعيشها حتى اليوم.

الفهرس

5.....	مقدمة
9.....	استهلال
13.....	الفصل الأول: جوهر مذهب السعادة
42.....	التناقض بين السعادة والخير
54.....	مطابقة السعادة مع اللذة، والتعاسة مع المعاناة
61....	الفصل الثاني: المفاهيم الرئيسة لنظرية السعادة
65.....	اللذة، السعادة
93.....	الخير السامي "الرفيع"
	الفصل الثالث:
111.....	علم الأخلاق الماركسي ومسألة السعادة

من إصدارات الدار

موليير / مسرح	ترجمة: يوسف الجهماني
على دروب الثقافة الديمقراطية	بوعلي ياسين
الشعر النبطي في حوران	علي المصري
قراصنة وأباطرة	نوعام تشومسكي
المعري والشيرازي	علي مخلوف
حوران عبر التاريخ	د. خليل المقداد
كاليجولا / مسرحية	ترجمة: يوسف الجهماني
حرية الآخر	جاد الكريم الجباعي
القرآن بين التفسير والتأويل	أنور مخلوف
ما وراء الحجاب	فاطمة المرنيسي
خلفاء بلا خلافة	أ. أ. إغنائنكو
حزب الرفاه - أرباكان	يوسف ابراهيم الجهماني
حوارات في قضايا	
المرأة، الحرية، التراث	نبيل فياض

ف. ي. دانيلوف	الصراع السياسي في تركيا
ف. إ. شيرونين	خبايا الانهيار
هرمان هسه	نرسييس وغولدموند / رواية
هرمان هسه	روسهالده / رواية
هرمان هسه	ذئب السهوب / رواية
هرمان هسه	غرترود / رواية
د. فواز الأزكي	أيام الثلج الأحمر / رواية
يوسف ابراهيم الجهماني	ثغر حلم / قصص
فاديا سعد	عشتار والمولودة / قصص

يجب أن يكون السعيد بالضرورة خيراً.
غير أن هذا لا يعني أن كل خير هو سعيد
بالضرورة.

ما العمل لجعل كل خير سعيداً؟. يتعلق
هذا السؤال بتركيبة المجتمع، بالظروف
الاجتماعية والأخلاقية العامة، لا بنوعية
الإنسان الفرد.

يعرض هذا العمل، كيفية تشكل نظرية
علم الأخلاق عن السعادة، الظروف والعوامل
التي تطورت خلالها، اعتماداً على مادة علم -
أخلاقية تاريخية كبيرة. كما يشرح خصوصية
الدخول إلى مسألة السعادة في علم الأخلاق
الماركسي. والعمل كاملاً عبارة عن استرجاع
(تذكر) مصائر الأفكار المعبرة عن سعادة
الإنسان عبر التاريخ، وأعمال العمل أهمية
كبيرة لتلك الانتقادات والتحليلات للأفكار
وللتصورات غير الماركسية عن السعادة.



دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع

السعر: 80 ل.س

\$3

سوريا - دمشق ص . ب 32105

اشرفية صحنابا هـ : 6713079

To: www.al-mostafa.com